فضيلة ملهاق

لَعْنَة اليَرْبُوع

رواية

مكتبة نوميديا

ENAG
EDITIONS

لعنة اليربوع

رواية

01 14 19 /19
ردمك : 2 – 839 – 00 – 9931 - 978
© موفم للنشر السداسي الثاني 2019

فضيلة ملهاق

لعنة اليربوع

رواية

موفم للنشر

إهداء...

إلى كُلّ من يحسنون جبر كسور النّفس،
إلى كُلِّ مَنْ يَعْنيهِمْ أنْ يُحسن الإنسان رسم الإنسان..
... أهدي لوحة انفلتت من دواخلي مثقلة بخبايا الخطوط والألوان.

فضيلة ملهاق

خاطرة بعيدة

صحوت مبكراً، كِدْتُ أقع أرضا، لم يكن سرير ابنتي يتّسع لكلينا، عدت في ليلة البارحة مرهقة، وغفوت جانبها، نظرت إلى ساعة الموبايل بقلق، كانت الثالثة صباحا، وجدت أكثر من خمس مكالمات لخالد، نسيت أن أوقف كاتم الصوت عندما خرجت من الاستوديو، لعلّه أراد أن يخبرني شيئًا، خرج مسرعا حال أن وصلت، لم يترك لي فرصة أن أرى وجهه، تملكتني الهواجس، فزِعتُ، وهرعت إلى غرفتي، تنفست بعمق عندما وجدته يغطّ في نوم عميق، بدا وكأنه يخاصم نفسه أثناء نومه، تتناوب الأضواء، التي تنبعث من شاشة التلفاز، على عرض ملامحه المنقبضة ومُداراتها، وتكشف عن الفوضى التي تعمّ الغرفة، وكأنها كانت ميداناً لصراع ثيران... باب الخزانة مفتوح على المصراعين، والشّراشف والملابس مرميّة على الأرض، وستار النافذة متدلّ، وأعقاب السجائر تملأ المطفأة وطاولة السرير... والجوّ مشبّع برائحة أنفاسه المختلطة برائحة الدخان، وبقايا الطعام، والعصير، والأحذية... وفي يده جهاز التحكم.

لم يكن مريحاً أن أرى مهندس الديكور الموهوب، الذي صمّم جوّ أشهر الحصص والأفلام، وأرقى البيوت والمنشآت، في

منظر شخص تائه، أو يائس، استغربت وضعه، ولم أجد له سببا وجيها، كانت أمورنا على ما يرام، وعلاقتنا ببعضنا بعض، في تلك الفترة، في أفضل أحوالها، فكّرت للحظة في أنه تعمّد أن يستخرج لي هذا المشهد، ليعلن تمرّده على حضر التجول الذي فرضته على سيجارته، فلم يعد يمكنه أن يتخطى بها حدود الشرفة، لكن الرائحة كانت قوية، تنذر بوجود حريق في داخله، وخشيت من طبيعة الوقود، فتحت زجاج النافذة، بغرض التهوية، ولأبدد بعض مخاوفي، وددت لو يستيقظ لأعرف ما يحدث، استللت من يده جهاز التحكم ولم ينتبه، حملت الصينية، بما عليها من صحون وبقايا الطعام، إلى المطبخ، ورحت أرتب ما تقع عليه يداي بحذر، فارتفع صوته من دون أن يفتح عينيه:

- ستهتم نسيبة بترتيبها في الصباح.
- لا أحب أن تهتم الخادمة بتفاصيلنا.
- سأهتم أنا بذلك، قال يُبطل حجتي في استمرار تحرّكي في الغرفة.
- لا يمكنني أن أترك هذه الفوضى للصباح، بررت له بصوت هامس.
- مع أنّك تعيشين في فوضى مستدامة، غمغم ثم استدار إلى الناحية الأخرى وأكمل نومه.

أغلقت التلفاز وذهبت إلى الصالون، كان الصمت يطمس كل شيء، حتى الأصوات الأخرى في الحيّ لم تكن تصل إليّ،

كأنَّ العالم في تلك اللحظة مات، ودفن معه ألسنة البشر... استلقيت على الكنبة، وانفردت بي هواجسي، استنتجت أنه عاد في وقت متأخّر، وعانى الأرق، بل أجزم أنه كان مرتمياً على السرير، يُشعل اللُّفافة بالأخرى، ويحدّقُ إلى الشاشة بنظرات جامدة لا حسّ فيها...كأنه صنم، تسلّلت كلماته إلى نفسي بعتاب مربك، أظنه كان يشاهد الحصة لدى وصولي، وأسرع إلى تغيير القناة، كعادته منذ مدة، فلم يعد يبدي اهتمامه بنشاطاتي كالسابق، وفي كل مرّة أُبدي فرحتي بعمل قمت به، يستقبلني بملامح متجهّمة، وكأنّه ضده.

دارت رأسي بكل الاحتمالات، حتى بالحلقة التي قدّمتها في ذلك المساء، رحت أشاهدها، على غير عادتي، لعلّها تحمل ما أثار غضبه، فهو على قدر طيبته، وهدوئه، وقلة اكتراثه بالأمور السطحية، على قدر ما تستفزّه أحيانا التفاصيل الصغيرة، وتجعله يلزم الصّمت المُعادي، بشكل يضغط أعصابي، فأردُّ له صمته، أحيانا، في حركة مصعّدة، تُرغمه على تسريب تراتُبيات ظنونه، وألجأ، أحيانا أخرى، إلى استفراغ جعبته، بطريقتي في الحوار، في تحدّ حذرٍ لطبعه الكتوم، فيزول سوء التفاهم، وتعود الأمور إلى نصابها.

صراحةً، لم أشاهد تلك الحلقة لأجل تقفّي ظنونه، وإنما لأجل ظنوني بنفسي، استفزّتني ملاحظته عن فوضتي المستدامة، وبحثت فيها عن دلائل النّظام، كان موضوعها

الفوضى الخلاقة، ذلك التهديم المقصود للنظام لأجل بناء آخر، يخدم أغراضا معينة، توقفت عند أحد المشاهد، كنا نتحدث، أنا وضيوفي، عن دور بعض الدول والحكومات في خلق بؤر التوتّرات والاضطرابات بغرض خلق جوّ يخدم مصالحها، فأثار أحدهم مسألة خصوصية المجتمعات الثقافية، واعتبرها من أخصب مزارع الفوضى الخلّاقة.

- للأسف، وراء كل فوضى فلسفة ذاتية، تقوم بتحجيم الرصيد الإنساني، الذي يُفترض أن يقوم على توسيع دائرة التّفهم والتشارك، وتختزله في مظاهر الاختلاف، قال يدعّم فكرته.

ابتسمت ابتسامة ذابلة، استهجنت تلك الانفعالات التي ارتسمت على وجهي، وأنا أدافع مثلهم، عن فكرة القالب الحضاري الذي يجب أن يؤلّف بين أهوائنا، ورغباتنا،...انقضضنا عليه بمعاول ذاتية، ورحنا نحاضر عن تصوّراتنا للأخلاق والشرف، والجنس، والعقيدة... وتراشقنا بها، ولم نسأله إن كان يقصدها بطرحه، وجدنا الوقود الذي يُلهب حديثنا، وحققت الحلقة نسبة مشاهدة عالية، ووجدت تعليقات عدة على الفيديو، لكنني لم أشعر بالظفر، وشعرت بالألم، أحسست بأن فوضى أهوائنا هي التي فرضت نفسها، وراجت، على حساب أصوات عقولنا.

أوقفت الفيديو وانكفأت على وجهي، لعلّي أسترخي، لعلّي أنسى نفسي للحظات، لكن نفسي لم تتركني وشأني، عادت

ترجني بلهجة مستهزئة: «لماذا تحاشيت طرحه؟ خشيت أن يأخذ الحوار منحى لا يروق مُتابعي برنامجك، وفضّلت عدم المغامرة، أثرت استبقاء انتباههم بالمستهلك المعتاد، بمخاطبة العاطفة بدل العقل، أليس كذلك؟» شعرت بالانضغاط، فكرت في قناعاتنا الظاهرة التي تنحتها فوضى نظرة الآخر، وألقيت نظري إلى متاهات بعيدة، لحين أنأحسست بقطرات المطر تناغش وجهي، على متن بساط الريح، كوخزات الإبر الخفيفة، ففتحت ذراعي، ومددت رأسي نحو الخارج، وتركتها تتهاوى على حشوه، لعلها تذيب تراكماته، لم أدر كم مرّ عليّ من الوقت، انتبهت على صوت خالد يُلاعب نهى، فهرعت إلى المطبخ لتحضير الفطور، فوجدته سبقني، لم يتغيّر وضع الغرفة، ظلت على حالة الفوضى التي تركتها عليها، لكن مزاجه تغيّر عن ذي قبل، دلقت فنجان الحليب إلى معدتي، واستمتعت بصفاء تلك اللحظات، فمنذ مدة لم أر تلك الابتسامة تملأ وجهه.

– أرسلوا إليّ العقد، على بريدي الإلكتروني، سأبدأ فورا بتنفيذ المشروع، هل يمكن أن تُساعدني صبرية ببعض المعلومات؟

– أكيد، سأمر بها وأنا في الطريق إلى أمي.

زف إليّ الخبر الذي جعله يتصل بي أكثر من مرة البارحة، شعرت بالحرج، كان معه حق أن ينفعل، ويغضب، أنا في حدّ ذاتي انفعلت، ولُمت نفسي، ما هذه الدوامة؟ لم يعد نهاري

وليلي يعترفان بالحدود، مشروع يجر مشروعاً، وانشغال يعقب إنشغالاً ... وتجاوزتني تفاصيل صغيرة، في غاية الأهمية، وتناسيت أمر مشاكله مع إحدى شركات الإنتاج السمعي البصري، ولم أعد أسأله عنها، عانى في الآونة الأخيرة كثيرا، توقف شغله فجأة، ودخل في دوامة فسخ العقد والمطالبة بحقوقه، استمرّ العقد ساريا بينهما لأشهر، من دون أن يستفيد منه، لم يتحصّل على مستحقاته، ولم يستطع أن يقوم بتنفيذه، ولم تكن المسألة بالنسبة له مسألة حقوق مادية بقدر ما حزّ في نفسه أن لا يرى عمله النور، بعد كل ذلك الوقت المهدور، والجهد المبذول في تصميم المناظر، والسعي إلى اقتناء القطع من شتى المحلات.

فهو ليس فحسب صاحب شركة لتصميم وتنفيذ مشاريع الديكورات، وإنما هو رسام ومصمم مناظر، ينجز مشروعاته بحس فني، ولم يعجبه أن يقوم مدير تلك الشركة بإقحام شخص آخر ليس له أي دراية بهذا المجال، وطلب منه أن يدخل على تصاميمه تعديلات تشوهها، ولا تخدم العمل الذي صممت لأجله، وعندما رفض واحتجّ، تمّ حرمانه من حقوقه، ودخل في دوامة إجراءات فسخ العقد، والمطالبة بالحقوق، لكن الاتفاق على تسليمه المشروع طال، تجاوز العام، ودخل في اعتيادي، أو لأن قلة إشراكه لي في التفاصيل أذوت اعتدادي به، وبأنه يحتاج إلى اهتمام يخرجه من قوقعة مرسمه، الذي كان يمضي فيه ساعات وساعات، لمجرد أن يُراجع تصاميمه القديمة، ويتأمّل

لوحاته التي انسلخت من جدران المعارض، فبالنسبة له هندسة الديكور هي هندسة حياة، التفاصيل الصغيرة قد تهدها، وتبنيها، ولا أظن نظرته إلى حياتنا تختلف عنها، لذلك وجدته في تلك الحالة من القلق، بدل أن يتفاعل مع الخبر بغبطة وارتياح.

***

تركت نهى عند أمي، وذهبت إلى بيت صبرية، سلّمت على أمها وصعدت مباشرة إلى غرفتها، اختلفت عن آخر مرة رأيتها فيها، أو ربما أوحت لي بذلك الرفوف الجديدة التي ثبتتها على الجدران، وجدتها في حالة لا تختلف عن الحالة التي تركت عليها غرفتي، إلا في بعض التفاصيل، وكأنه يوم الفوضى! مصراع الخزانة شبه مفتوح، والملابس مترامية على طرف السرير، والكتب والمخطوطات متفرقة على المكتب، وطاولة السرير، وأكواب الشاي... أخبرتني أمها أنها لم تخرج منها طيلة عطلة الأسبوع، ولم تفاجئني، تعوّدت عليها منذ أيامنا الدراسية الأولى، تمضي ساعات وساعات، وأحيانا أياما، في غرفتها، ترسم، أو تنقل مقاطع من كتب أو مقولات، أو تعيد ترتيب كتبها، وتتنازل عن عدة وجبات... لم تكن تكتفي باللعب، وتركن للراحة مثلنا جميعا، حتى أثناء العطل، كانت تلك طريقتها في تمضية الوقت، وكأنها كانت تُعد نفسها لتكون أكثر من امرأة في هذا العالم! لكن ما فاجأني هو حالة التعب التي بدت عليها، تشرّب السهر نضارة وجهها، وبدا عليها الإرهاق، والهزال.

- خالد بصدد تصميم مشروع كبير، موضوعه يتعلق بالأبحاث الذرية، وسألني إن كنت تحتفظين بسلسلة المجلات التي أعرتها له ذات يوم، يريد أن يستفيد منها.

- بل لديّ منها أعداد جديدة.

- ستكتظ رفوفك، ويثور عليك السجناء، أطلقي سراحك، ستقعين رهينتهم، تنفسي قليلا مثل بقية الخلق!

- لم تُكتب الفضاءات الرّحبة للجميع، يا فراشة، هناك من قدرهم أن يكونوا طلقاء في زنزانة، قالت بنبرة جادة ثم أردفت: أنا أتابع ربورتاجاتك الناجحة باهتمام، السجناء أيضا له الحق في الإعلام...هاها هاها!

ابتسمت ابتسامة جرداء وقلت لها في نفسي:

- فراشة تُراوح الأدخنة، لو تُدركين!

***

زوّدتني ببعض الكتب والمجلات، لحين أن يتصل بها خالد ويطلب منها ما يريده بالتفصيل، أمضينا بعض الوقت معا، أوصلتها إلى عملها، وتفاجأت بغرابة المصادفة، لم تختلف ليلتها عن ليلتي، نالت مثلي نصيبها من حديث المطر، والأرق! وكأنّ ملاك النوم كان غاضبا علينا! انْتَهَتْ بدورها قبل الفجر بكثير، على صوت غريب، يملأ خلاياها: « في ذلك اليوم الذي أنقذْتِني فيه، خَطَوْتِ خُطوة لا رجعة فيها، رسمتِ بها بداية طريق، قد

يكون طويلا، وشاقًّا، ومليئاً بالحفر والأشواك... وبلا نهاية، لكن لا شيء مستحيل، تحلَّيْ بالصَّبر، والإيمان، لعلّ الخلاص يكون على يديْكِ...لا توجد لعنة أبدية، عدا لعنة إبليس، لا يجب أن تتراخى عزيمَتُكِ، ولو لثانية، قد تُساوي ثانية واحدة العمر كُلُّه، المخبر في انتظارك! قومي! ما أطال النّوم عمرا، ولا قصّرَ فيه طول السّهر.» أسرعتْ إلى الخزانة وأخرجت محفظة قديمة، فتحت دفترا صغيرا، على صفحة من صفحاته المصفرة، وحضنته بقوة، وقالت في نفسها: « أصبحت الخاطرة مشروعا علميّا! نحن نتنفس خواطرَنا، نحيا، أو نُقبر، بها.»

كيف ستكون نتائج التجربة الأولى؟ خرج مع تساؤلها أبخرة متقطعة، توالى تثاؤبها، هرعت إلى النافذة وفتحتها على المصراعين، فتهافتت زخات الهواء البارد على وجهها، وطاردت آثار النعاس، وقفت في الظلام، تُتابع زخّات المطر، وانهمرت الأفكار في رأسها، مرّت عليها لحظات شعرت فيها أنها قطرة ماء، غمرتها نشوة كبيرة...مُتعة الخِواء، من أي مسؤولية...من كل انشغال...توقّف المطر، وعادت إلى وجودها، وقالت بصوت هامس: «محظوظة أنتِ، يا قطرة الماء! مسارُك في الحياة عفويٌّ، بريءٌ...لا خطأ، ولا إثم، ولا حيرة... » ثم تراجعت مجرد أن استدارت إلى الأوراق المتناثرة على سريرها، وقالت: «آسفة، في زمننا، إبتليت قطراتُ الماء بلَوْثة أنفُسِنا!»

استلقت على السرير، وراحت تُناطح الفكرة بالفكرة إلى أن دهمها نور النهار، وداعبها هواء الصباح، بنسماته النّدِيّة العليلة، انتعشت تصوّراتها، وأصبحت كثّة، ومُفعمة بالحماس، منذ تمّ توظيفها بالوكالة الوطنية للأبحاث المتقدمة، التي تضمُّ نوابغ الباحثين، الذين يتم انتقاؤهم من مختلف مراكز البحث، أحسّت بالظّفر، نصحها الدكتور طابتي، مدير قسم الأبحاث التّشريحية، بأن تترشح للعمل الإداري، لحين أن تستوفي شروط العضو الباحث، وهي الخبرة المهنية اللازمة والدرجة العلمية وقدرا من الدراسات المنجزة، لفتت انتباهه عندما كان يُدرّس في الجامعة ذاتها، وساعدها على العمل بمخبره، ووضع تحت تصرفها مخبر الطب النووي.

- نتائج مبهرة! أظنها أفضل مذكرة ماجستير تمّت مناقشتها في قسم الفيزياء النووية منذ سنوات، أثنى على النتائج التي توصلت إليها.
- أفكّر في أن أستغلّها في مشروع أطروحة، لكن تجسيده صعب، يتطلّب تكاليف ضخمة.
- أي موضوع؟
- تطهير البيئة من الإشعاعات النووية، عن طريق غازات تعمل على تفكيكها، وسحبها نحو التراب ثم تتحوّل سمادا.

لمع في عينيه بريق الاهتمام ثم خفت، وقال بنبرة ممطوطة بالشكوك:

- يتطلب الأمر أكثر من الحماس، هل تعين ما تُراهنينَ عليه؟

- لديّ مؤشرات، حضرتك فيزيائي، وتعرف معنى أن يتم التوصل إلى هذه المعادلة.

أشارت إلى مجموعة من العمليات الحسابية، والمعادلات الكيميائية، التي وضعتها بين يديه، لكنه لم يُعِرْها نَظرُه، غمغم قائلا:

- قدّمي مُلخَّصا عن الفكرة، وبعدها سنقرر، الذَّرَّة عالم متشعب، ومُداهِن، تكْشِفُ للإنسان سرّا لتستعرضَ ألف سِرٍ، وتتركه مهزوما، مفاجآتها تهزمُه، وفضولُه يهزمه، فيظلّ يتساءل، ويطمح، ويتحدّى...قدره الحيرة، الإحساس الذي لا يعرفه غيره من المخلوقات.

قدره الحيرة، قدره الحيرة...

تردد صدى عبارته في رأسها أكثر من مرة، وافق صدى دواخلها، التي تدرك تماما أن من يُسلّم نفسه للمخبر كمن يُلقي بها في الضباب، لا يدري بماذا سيرتطم، يُمكن أن يُعايش الأمجاد، ويمكن أن يُطمر في التفاهات، فلا يكفي أن تلوك آمالاً عظيمة، قد يتّخذ الفشل أشكالاً عِدّة، لكن لم يكن رأسها يتسع للتفكير

فيها، هبّت الأحلام من مرقدها الشتوي، واشتعلت أضواء الغد، غيّر العمل نظرتها لوجه العالم، أصبح أكثر تفتحاً، وينزو برائحة آت مزهر، ولوّح لها اهتمامه بها بطيف مشاعر مبهمة، يجتمع فيه اليأس والأمل، والواقع والمحال... يُساورها السؤال ذاته وهي في طريقها إلى المحطة: «هل يمكن أن يهتمّ مثله بفتاة بسيطة عرجاء!» ويتكرّر الجواب: «يكفيكِ أن فتح لك بابا كان مسدودا، لا تكوني طمّاعة!»

هزّت رأسها مساندة، وأسرعت نحو الحافلة، كانت على وشك أن تُغادر، ضيّعت فرصة الحصول على مقعد، واضطرّت إلى أن تنتصب وسط الأجساد المُكوّمة كحزم سنابل تنتظر نقلها إلى البيدر، مدّت يدا نحو العمود وثبتت الأخرى على حقيبتها، علّمها الانتقال بالحافلات الاحتراس من النّشل، وكان ذلك الحشو يُسهّله، تسلّلت نظرتها إلى الخارج، وغاصت في مشاهدة شريط السيارات المتحرك: هذه سيارة غريبة الشكل، وتلك نوعها منقرض، وهذا يركب جانب ذاك، وذاك يُلوّحُ بإشارات مبهمة، وهذا جامد خلف المقود، تسوقُه أفكاره، وذاك مُثبّطُ الحركة ونظراتُه مُزَلْزَلة...كانت المناظر تتراجع إلى الخلف وإحساسها بغرابة الوجود يتقدّم.

تراجعت تدريجيا نحو الوراء، كاد جسدها يخترق زجاج النافذة، واستمر الرجل الذي كان جانبها يتقدّم نحوها، وجعلت حقيبتها حاجزا بينها وبينه، فأحسّت بأطراف أنامله تُلامس يدها،

بشكل اقشعرّ بدنها، لم تعد تطيق الصّمت، كلحت في وجهه، وطلبت منه أن يتراجع قليلا، احمرّ وجهه وتبعثرت نظراته، واستدار إلى الجهة الأخرى، فانتبه لنظرات الوعيد التي أحاطت به، وفهم أنه ليس في وضع يسمح له بأي رد فعل، خاصة بعد أن انْحشر بينهما شاب، لم تدر من أين خرج لها، وجعل جسده عازلا بينهما.

– ضايَقك؟ قال لها وهو يُولِيها ظهره.

هزّت رأسها على استحياء، فتعمّد أن يرفع صوته، ليسمعه ذلك الشخص، وقال :

– الحافلات هي بيوتُنا المتنقلة، يجب أن تحظى بالحماية والإحترام، المرضى تُعالجهم المصحّات، والآثمون تردعهم السُّجون، وغير المُؤدّبين تُعيدهم لكَمات الرجال إلى جادّة الصّواب.

– شكرا، ردّت بارتجاف.

تدفقت الدماء بغزارة إلى وجهها، بدا مثل لُبّ بطيخة، شعرت بالحرج، ثبّتت بصرها في الأرض، لم ترفعهما حتى نزل بعض الركاب في المحطة الموالية، وخفّ الاكتظاظ، واستدار ذلك الشاب إليها في تلك اللحظة وتبينت ملامحه، بدا في الثلاثين من العمر، حِنْطي البشرة، وترتسم على وجهه لحية رهيفة، تُضفي عليه المزيد من الوسامة.

- طالبة؟ بدرها بالسؤال.
- تقريبا، ردّت باقتضاب.
- آسف على السؤال، قال لها بنبرة تكشف عن استيائه من نبرتها المستهجنة.

رفعت بصرها، فوقع مباشرة على نظرات ذلك الشخص ضايقها، فقرّرت أن ترسل له رسالة تنبئه بأنه ليس من مصلحته أن ينتظرها في المحطة، فرَدت ملامحها العابسة، وقالت لذلك الشاب، بنبرة مُهادنة:

- تدخّلتَ في الوقت المناسب، كنتُ على وشك الانفجار.

ردّ عليها بملامح خالية من أي تعبير:

- هذا واجب.

أضافت توطئ للإجابة على سؤاله:

- طالب؟

رد بلا تردد:

- كنتُ، فعل ماض ناقص.
- آسفة.
- لا عليك، لم يعد الموضوع يؤلمني، دخل الجرح في الاعتياد، تألّمتُ بالجملة حين تَوفى بائع الخضار المتجول، كنت في السنة الثانية قسم صيدلة، وترك لي

أمًّا وأربعة إخوة، بلا دخل، إمّا دراستي أو جوعُهم.

– يمكنك أن تواصل تعليمك، قالت تكشف عن تعاطفها معه.

– حاليا، مستحيل! أحلامي مؤجلة، كُلّ همّي أن أسُدَّ طنين البطون، الجوع شبحٌ مرعب، أنا مُمْتَنٌّ لبشير، الرجل الطيب الذي ساعدني على العمل في صيدلية، دعت له أمي كثيرا، ويبدو أن دعواتها كانت مستجابة، تم توظيفه بعدها مباشرة بالوكالة الوطنية للأبحاث المتقدمة، وهو يعمل مع الدكتور طابتي.

أدهشتها المصادفة وأمتعتها، همت بأن تسأله إن كان الشخص الذي ذكره يعاني من شلل في يده اليسرى ثم تراجعت، كانت أدرى بوقع هذا الوصف في النفس، فضلت أن تذكره بلقبه:

– هل تقصد بشير عاصي، الذي يعمل بالوكالة الوطنية للأبحاث المتقدّمة؟

– هل تعرفينه؟

– أظن نعم.

تراقص السؤال في نظراتها، قفزت من موضوع بشير إلى الموضوع الذي يستقطب اهتمامها:

– هل تعرف الدكتور طابتي؟

ردّ بنظرات تطفح بالإعجاب:

– من زبائني، شخص مميز! ترك منصبه، وكل حياته، في أمريكا، وعاد من أجل أن ينقل خبرته لأبناء وطنه، غادر طالبا بسيطا وعاد عالما.

تمنت لو يطول حديثهما، لم تكن تجرؤ على الحديث عنه مع زملائها في العمل، درءًا لسوء الظن، ووفرت لها المصادفة متنفسا آمنا لفضولها، قالت تحثه على الإدلاء بالمزيد: شخص مكافح! هذا مثير! قالت تقصد مكانته العلمية ووظيفته، لكنه ركز على ما يشغل باله:

– العملة الصعبة تُخمّر المداخيل، تنفخها نفخا، ليتني أحصل على تأشيرة!

وصلت الحافلة إلى المحطة، فودعها على عجل:

– فرصة سعيدة، أنا كريم.

– شكرا.

تراجعت إلى الوراء، أفسحت المجال لينزل بعض الركاب ثم نزلت هي، دهمت روحها نشوة عارمة، شعرت بالحاجة لأن تتحدث عن تلك المصادفة، واستغربت أن خطرت ببالها رفيقة، في تلك اللحظة بالذات، كانت لعلّها بحاجة لصوْت يقنعها بعكس ما تُضمره، طرقت بابها بحرج، انتبهت لكونها لم تتصل مسبقا، همّت بأن تتراجع لكن الباب انفتح بعد ثاني

طرقة، ولمحت حماها يُسرع إلى الغرفة المقابلة، بدا غير مستاء من زيارتها، كان يمر بأوقات فراغ مربك، منذ تقاعد من قطاع السجون، وأصبح متقلب المزاج، فائر الأعصاب، يُمضي معظم وقته في مراقبة الآخرين، وتوجيه الانتقادات لهم.

أصبح يُدقّق في كل شيء، حتى في مخارج الكلمات، لاسيما ما يتفوه به ابنه علي، ويعلق عليه في معظم الأحيان باحتقان، يكشف عن رغبته في إثبات أنه أفضل منه علما وتجربة، ويردد، بمناسبة وبغير مناسبة، أن الشهادة لا تعني الكفاءة، ويطيل في شرح أخطاء رؤسائه السابقين، وهفواتهم...ويعدد تدخُّلاته، التي أنقذتهم من الوقوع في أخطاء جسيمة، أسرّت لها زوجته بأنه وضعه أصبح يقلقها، خاصة عندما تراه يرد بحنق على كل من يسأله عن مشاريعه الآتية، قائلا: « سأهدُّ هذا السجن القديم المهترئ وأبني سجنا أوسع وأجمل، على الأقل سيعيش أحفادي في زنزانة مُريحة، لحد أن تنتهي العقوبة الدنيوية.» طلبت من عليّ أن يجد له عملا يشغله، فردّ بنبرة متحسّرة:

– أُفضّلُ لو يشغل وقته بطريقة أخرى، عليه أن يرتاح... ثمّ أين هي فرص العمل؟ البطالة اليوم تتقاذف الأدمغة مثلما تتقاذف أرجلنا الحصى في الشوارع.

– اشغله بأي شيء في مكتبك، لا يهم الرّاتب.

– لا تخشين أن يُختطَف منك! لديّ زبونات جميلات! قال ممازحا.

– كُنّ اختطفنَكَ أنتَ، وشتّان!

ومضت عينا أم علي بالرضا عندما جاء ذكر رفيقة، وانتقلت من الشكوى إلى المدح، وصفتها بالصبورة والمتعلقة، وأسهبت في ذكر خصالها، وراحت صبرية تهزّ رأسها مساندة، بينما عقلها مشوّش، يحاول أن يربط بين تلك الأوصاف وبين صورة تلك الفتاة المندفعة، التي يقذف فمها بكل ما تنتجه تلافيفها المخية، تراءت لها صورة والدتها، وهي تتذمر منها، عندما كانت تتكاسل عن مساعدتها في أشغال البيت، أو تخلط بين مكونات الطبيخ، كأن لا تفرق بين الثوم والبصل، أو البقدونس والكُسبَرة، أو حين تُضيف له بهارات لا تتناسب مع مكوناته، قالت لها ذات مرة في حضور حمامة، جدة صبرية: «كيف ستتحملين مسؤولية بيت وعائلة وأنتِ على هذه البلاهة!» فعلقت حمامة، مُهوّنة: «الدودة العمياء يأتيها رزقها إلى الغار»! فانفعلت رفيقة وهمست لصبرية: «دودة! فم جدتك هو ملتقى قنوات الصرف الصحي!» كتمت صبرية ضحكتها، وهمست لها أنها تقصد أن كل مخلوق مرزوق، مهما كانت قدراته.

كتمت صبرية ضحكتها في هذه المرة أيضا عندما قالت حماتها: «نشيطة، تتحرك هنا وهناك كالدودة!» ابتسمت وقالت في نفسها: «دودة!» ثم قلبت بصرها في أنحاء القاعة بحركة لاشعورية، وكأنها تعاين نظافته ورتابته، فنتبهت لأول مرة إلى ضيق الشقة، وقدم العمارة، ومحاولات مداراة اهتراء الجدران

بالديكور، كانت رفيقة تستحم، مرّت لحظات قبل أن تخرج إليها، لم يلتقيا منذ مدة، اقتصر تواصلهما على بعض المكالمات المتباعدة، راحت تزف الخطى نحوها، وإبنها يمسك بأذيالها ويصرخ باكيا، آخر مرة رأته فيها كان حديث العهد بالولادة، أبدت دهشتها من سرعة مرور الوقت.

– ما شاء الله! كبر، كم عمره الآن؟

– ثلاث سنوات.

ربتت رفيقة رأسه وأعطته قطعة شوكولاتة، ومجرد أن هدأ فركت عينها، وقالت لها بمرحها المعتاد:

– زلّت قوائم حمارك أخيرا وألقى بك إلى شِعابنا! ما هذه الغيبة يا سيئة؟

ضحكت صبرية، وقالت:

– أهكذا تستقبلينني بعد غياب؟

– لو لا أنّني أحسب حساب عائلتك التي ترافقك لكنتِ رأيتِ منّي العجب! قالت لها ثم قهقهت وأردفت بنبرة متحدية: راهنيني على غير ذلك، إن كانت لديك ذرة شجاعة! راهنني على أنك تضعين في الحقيبة مشطا، ومرآة، وأدوات زينة... كبقية النساء، وليس مَطويّات، وأوراق، وسيديهات... بل أجزم أنك تتكسّينَ بالأوراق والمطويات، بدلا من الملابس الداخلية! هاها...هاها!

ضحكت وقالت:

- قويت ذبذباتك الصوتية، لم يعد (الديسيبل) مناسبا لقياسها! أراهن على أن عليلو يستغني عن جميع وسائل الإعلام في وجودك.

انفجرت رفيقة بضحكة مشحونة باستعدادها لتمضية الوقت في المزاح، فأعادت صبرية الحديث إلى سياق الجد:

- كيف حاله؟ لا يزال يعمل في مكتب صديقه؟

- كلا، ليه مكتبه الخاص، استأجر محلا في الشارع المحاذي لبيتنا، تحسّن الوضع كثيرا عن ذي قبل، ارتفع عدد زبائنه.

- علي نشيط، ويؤمن بما يقوم به، سيكون له شأن في المحاماة، هي مسألة وقت فقط.

حفّزها ثناؤها عليه، وأردفت تتحدث عنه، بغبطة وحماس، حدّثتها عن بعض القضايا التي ربحها، وانضمامه لقائمة الخبراء في التّحكيم الدولي، ومشروع المؤلف القانوني الذي ينوي نشره...وأخبرتها بقُرب استلامه شقة، يدفع أقساطها منذ مدة، وبأنّه غيّر سيّارته...

- وأنتِ؟ باغتتها بالسؤال.

أشارت إلى بطنها المُنداح، وقالت:

- كما ترين، أنتظر أن يكبر أسامة قليلا، وأتخطى هذه الحالة، وبعدها سأرى.

- ألا ترين أنه المركز الذي يحلم، ويحقق، وأنّكِ مجرد هامش؟ تطلعاتك كلها مؤجلة! مرة من أجل الزواج! ومرة من أجل المولود! ومرة من أجل خطوة ينتظر هو تحقّقها! ألا يعنيك تحقيق ذاتك؟! ألا يراودك حلم ارتداء الجبة وأنت تغسلينها في كل مرة بيديك، وتكْوينها بعناية؟

لم تأخذ وقتا لترد:

- تركت لك ملعب تحقيق الذات بكل مضاربه يا سيدة كوري! رتبي ما شئت من المباريات! الملعب الوحيد الذي يعنيني الآن هو ملعب الزوجية، أنا هي الدفاع، والهجوم، ووسط الميدان، وحارس المرمى...والمدرب... والطاقم الإداري، والفني...والطبي...وحتى العشب.

- وكيف تستمتعين بمبارياتك في غياب الجمهور والمنافسين؟ قالت تُساير تشبيهاتها الطريفة.

- كل هؤلاء وتسأليني عن المنافسين! أشارت مرة أخرى بإيماءة ممازحة إلى ابنها وبطنها ثم أضافت بنبرة جادة: النجاح هو تحقيق الرضا، هذا هو أهم هدف يمكنك أن تُسجّليه في شباك الحياة.

نظرت إليها باندهاش وقالت:

- تغيّرت كثيرا!

قالت بنبرة تُضمر النصح:

- أنعم الله علينا بالعقل لنفكر، ونعتبر، وأنت أيضا يجب أن تعتبري، رجل اليوم يضجر من الأفلاطونيات، وتجذبه تفاصيل أنثوية،
- أعتبر! أتخلى عن أبحاثي، وأتعاطى دروسا في استغلال الأنوثة! مجنونة! حقا مجنونة! هاها...هاها!
- من قال تخلي عنها ؟ يمكنك استغلالها في شيء نافع.
- وما هو النافع في نظرك؟ أضافت صبرية بنبرة مسايرة، وهي تكتم ضحكة تكاد تُفجرّ فمها، وقالت:
- افتحي لك صفحة مفيدة، قيسي احتياجاتك، وصيغي معادلة معقولة لحياتك، بدل المُولات والهرتز... والنيوتن...وكل تلك القياسات المُعقّدة، والصيغ التي تشبه تعويذات تحنيط المومياءات، أي زوج هذا الذي سيحتمل جاهليتك الأنثوية! سيفر منك في أول أسبوع... هاها...هاها...

شعرت بالحرج، تجاهلت حديثها، ارتشفت قليلا من العصير، وقالت:

- ليس للبشر منظار نَمطي، يُوجد من يضحي بنفسه من أجل هدفه، ويوجد من يرى نفسه فوق كل هدف.

انفجرت رفيقة ضحكا، وقالت:

- تضحية! وبعد أن اعتصرتُ مُخّي من أجل أن أعطيك نصيحة نافعة! لا عليك! ضحّي يا ماري كوري! ضحّي! اشبعي تضحيات! إياك أن تتركي غصّتها في قلبك! هاها... هاها! استمري هكذا، على ظلاميتك الأنثوية إلى غاية أن تأتي فتاة من عصر النهضة وتأخذ منك طابتي!

اقشعر بدنها، تطيرت من كلامها، وكأنها عرافة تنبئها بحلول مصيبة! كذب المنجمون ولو صدقوا، ولكنهم يزرعون الوسواس!

- حصلت على الدكتوراه، غيّرت الحديث، لم يعجبها أن تتغلغل في أغوارها.
- مبروك، تستحقين كل الخير يا مُخّيخة! والآن، إلى حياتك مباشرة! ضعي نقطة النهاية!
- بل هي البداية! هناك مشروع في الأفق، لو تمّ، سأكون فعلا نجحت في حياتي.
- خِطبة؟ قالت رفيقة تضغط بمزاحها.
- تضحية من إيّاها، سايرت صبرية مُزاحها.
- يا مُثبّت العقل!

استيقظ الحلم القديم

بدّد كلام رفيقة رغبتها في الحديث عما جاءت من أجله، همّت بأن تودع رفيقة وتغادر، فرنّ الهاتف، وراحت رفيقة تتحدث وتنظر إليها ثم استوقفتها بنبرة آمرة:

- حكمت عليك المحكمة! ألحّت نورة عليّ باستبقائك!

- نورة هامان! لم نلتق منذ سنوات، كيف حالها؟ قالت بغبطة.

ضربت صدرها، وقالت:

- أخذت بالنصيحة! تعقّلت.

سألتها ممازحة:

- قطعت محاضراتها مثلما فعلت أنت يوم حصلت على الليسانس، وتأبطت ذراع شبيه عليلو في اليوم التالي في البلدية؟

فرقعت رفيقة بالضحك، وقالت:

- فراستك لا بأس بها! تأبّطت ذراع عمّي.
- نورة زوجة عمك! أيُّهم؟
- مُقداد، وإن أخذت أنت أيضا بالنصيحة ستصبحين زوجة ابن عم عليلو، لو رأيته! نجم من نجوم هوليود! هكذا سنجتمع ثلاثتنا غصبا عنّا.

غيّرت الحديث:

- عمك مقيم بالخارج، كيف سوّت وضعيتها في العمل؟

نظرت إليها باستغراب، وقالت مستنكرة:

- أقول لك تأبّطت ذراع عمّي الوسيم، جرّاح القلب، الودود، ولود العملة الصعبة، وتسألين عن عملها؟! أهذه هي نتائج جهدي المهدور في درس اليوم؟ يعجز اللسان عن تنقيطك! رُسوب!

قامت رفيقة لتستقبلنا، وتركتها غارقة في الضحك، ومجرّد أن وقعت عينها على نورة هرعت إلى نورة، وعانقتها، بشكل يكشف أنها تفتقدها، اجتمعنا مجددا بعد سنوات، كانت صبرية جارتي وقريبتي، ورفيقة هي زميلتنا في المدرسة، كبرنا معا، أما نورة فتعرفنا إليها لاحقا، في كلية الحقوق، وكانت صبرية ترى فيها محرّكها المعنوي، كنت أرى في عينيها الانبهار وهي تستمع إلى أحاديثها، ولا تنفك تمدح تعقلها، وهدوءها، وكلماتها الدقيقة المركزة، التي تزرع فيها الرغبة في بلوغ عوالم غير اعتيادية.

– كيف حال السيدة الرئيسة، أم أقول سلفة رفيقة؟ بدرتها بالمزاح.

تلقفت رفيقة الكلام:

– السيدة الرئيسة! هذا لقب قديم، تجاوزته الأحداث! قولي صاحبة الفخالة! يُقال في التشريفات جلالة الملك، وهو لفظ مخادع، فالجلالة لله وحده، والأجدر أن يُقال على الحاكم (الجلا- لا) دلالة على أنه يجثم على صدور الرعية ومصائرها، ولا ينجلي إلا بالموت، ويُقال أيضا فخامة الرئيس، وهو لفظ قاصر، فالفخامة والضخامة للفيَلة، وهي قليلة الحيلة، أما الفخالة فهي وصف لوضع يستقر بين واقعين: فخ (زواج) وآلة (زوجة)، والنتيجة هي الفخالة! هاها هاها...

– من أين لك بكل هذه الأفكار يا (سيبويه)؟! تُذاكرين من ورائنا! قلت لها بنبرة مستغربة.

انفجرنا ضحكا، ما عدا صبرية، كانت منشغلة بتفسير وصف ملكة الذي أطلقته رفيقة على نورة.

– منصب جديد؟ عادت تسألها.

بادرت رفيقة مرت أخرى إلى جوابها:

– حضرة الفخالة أصبحت مالكة قلب عمي مقداد، وملكة في بيتها، وأم ولي العهد إسكندر المقدادي!

تطايرت من شفتيها نبرة مشحونة بالحيرة:

- تركت العدالة؟

- توقفتُ عن ممارسة مهنة القضاء، لم أترك العدالة، ردّت نورة مصححة.

جالت صبرية بنظراتها على وجهها بذهول، استغربت أن تترك عملها، بعد كل ذلك الشغف، كنا نلقبها بالسيدة الرئيسة وهي طالبة، وكانت ترد على مُزاحنا بثقة: «خُلقت لأكون قاضية، تجري في دمائي رغبة حثيثة في أن أُشهر سيف الحقّ، وأردّ المظالم.»

- لعلّك تعرضت لمساومات وضغوطات! ألحّت صبرية عليها بفضولها.

- لا أحد يجرؤ على أن يضع لك سعرا إن لم يكن لديك استعداد لأن تبيعي، نفت شكوكها بثقة.

- ولَمْ تتعرّضي للمضايقات؟ استمرت صبرية تبحث عن سبب وجيه لاستقالتها.

- المضايقات كالأخطبوط، لها أكثر من ذراع، قد تُطبق على الأنفاس بتكوين سيء، أو ظروف، أو ذهنيات... يمكن أن أذكر لك قائمة طويلة، لكن أقرف أذرعها في نفسي هو تفشّي الرداءة والمحسوبية، خاصة عندما يستفحل القنوط، ويتعوّد الناس على القحط وكأنه قدرا!

ويصبح كل من يفكر في أن يجعل محيطه مُخْضَوْرِرًا إما شخصا كرتونيا، دونكشوتيا، وإما دودة مزعجة.

بدا على نورة التأثر، صمتت، وأطرقت قليلا، ثم استدارت إلي وباغتتني بمزاح غير متوقع:

- هذا موضوع آخر يطول شرحه، ليس وقته الآن، استطالت أذني ربيعة بما يكفي لتلفيق سبق صحفي.
- اطمئني يا صاحبة الفخالة، أنا إعلامية متمرّسة، لا أضرب خطّ الرمل، لا كتابة من دون أدلة وقرائن، قلت أساير مزاحها.

غمزت لها رفيقة، تتواطأ عليّ بمزاحها، وقالت:

- الحذر واجب، شكوتُ لها مرة من عزوف عليلو عن أكل الباذنجان، وقلت أن في الأمر إنّ، كنت أقصد أنه تعشّى في الخارج، فتفاجأت باسمه في اليوم الثاني مكتوبا بالبنط العريض: «ما هو السّر الخطير الذي يُخفيه المحامي علي الصادق في الباذنجان؟» هاها...هاها...

كنت أود أن أتحدث عن ظروف الإعلاميين الشرفاء في تعاملهم مع الحقيقة، فأذوت نبرة الجد على لساني، وجعلتني أكتفي بتعليق مهادن:

- تودّدي إلى الفخالة ما بدا لكِ! لن تنفعك عندما أكتب عنك في صفحة الأحداث: « انفجار مدوٍّ لباذنجانة دائرية

بشارع بلوزداد.»، بقي لك فقط بضع غرامات ويصبح رسمك في متناول الجميع، دائرة ونقطتين وقوس ضاحك! لا يحتاج الأمر لسوى مِدْور وقلم الرصاص، هاها...هاها!

– سأرفع عليك قضية سب علني، وأطلب تعويضات تُنسيكِ الكتابة، لن أجد فرصة أفضل منها، لتحسين وضعي على قفاك! هاها...هاها...

– كم تظنين سيكون التعويض عن هرش باذنجانة! قلت أُصعّدُ لهجة المزاح.

فرقعت الضحكات، وأشارت رفيقة إليّ بأن أخفض صوتي، أبدت استسلامها، مقابل أن لا تتلقف أذن حماتها هذا الوصف وتعيّرها به عندما يتشاجران، أشرت إليها بيدي بأنني ربحتها، والتفَتْتُ أستمع إلى الحديث الذي كان يدور بين صبرية ونورة، كانت صبرية لا تزال تبحث عما يحفظ في نفسها صورة نورة، القوية العزيمة، التي أنهت عامين دراسيين، بتفوق، في الهندسة المعمارية، وفضلت دراسة الحقوق الحقوق لأجل حلمها...نورة الملهمة، التي كانت تشجعها قائلة: «حباك الله بنعمة كبيرة، هي نعمة العلم، استغلّيها في شيء نافع يُميزك كامرأة، وكإنسان، لو لا أن ميّز الانسان نفسه بنقوشه وصنائعه، لكان تاريخه أخرس وانتسابي، مثله مثل الحجر والشّجر.» تلعلع صدى تلك الكلمات في نفسها، وقالت:

– خسارة!

جاءها جوابها، كالعادة، مركزا ودقيقا:

– يا عزيزتي، كلمة خسارة أكبر من الإنسان، هي باب للغرور، فلا أحد غير مستخلف، وهي باب للجهل، فلا أحد يعرف أين خيره!

قالت صبرية مستدركة:

– أقول خسارة لأنني لازلت أومن بما حلمنا به ذات يوم، أن تكون لنا قضية مشتركة، أنا أنشئ مخبرا علميا متطورا يضم النوابغ، وأنت تعملين على حمايته من الانتهازيين، والسّاطين على عصارة الأدمغة، أتذكرين؟

اعتدلت نورة في جلستها، وكأنها ما كانت تنتظر منها سوى هذه الكلمات، وقالت لها:

– لا زلنا فيها.

– في ماذا؟

– في مهمتي التي جئت من أجلها.

اختطفت رفيقة الكلام من فمها:

– لستِ في زيارة عادية! الآن فقط كنت أمدح تعقلك! عاد الفيروس القديم ينخر فيكِ! هذه لعنة!

ضحكت نورة ملئ شدقيها، وقالت:

– عُدت فعلا من أجل لعنة، وأحتاج لمساعدة عليلو.

ضربت رفيقة صدرها، وقالت بقلق:

– مشاكل مع عمّي؟

ابتسمت نورة، وقالت:

– هذا هو حدُّ خيالك الجامح! الزواج، والطلاق، والحمل... والالتصاق...! تم اعتماد طلب التأسيس، وأريده أن يتابع أثناء غيابي عملية تهيئة المقر مع الأمينة العامة للجمعية.

ضربت كفا بكف وقالت:

– هذه فعلا لعنة! ما كان ينقصنا سوى أن تعود السيدة (الايميقري) لترفع عدد الجمعيات! لن تجدي اسما لجمعيتك، نفدت التسميات!

لم تستطع نورة أن تسيطر على موجة الضحك التي اعترتها، وهي ترى تعابير وجه رفيقة المشاكسة، فتناولت أنا الكلام، وأكدت لها:

– تم اعتمادها باسم «جمعية الإنسان قبل كل شيء»،

جحظت عينا رفيقة وقالت لي، بنبرة معاتبة:

– أنت أيضا معها! نساء من بلاد العجائب! ألم تطلبي مني في الأسبوع الفارط وصفات تُهادن بطن زوجك؟ ألم

تعترفي بأن أكل المطاعم كشط أمعاءه، وتعدي بتدارك الوضع!

- أعصابك، يا كائن يا بيتوتي! قالت نورة ممازحة ثم ثبتت نظراتها في صبرية، وأردفت تكلمها بألم: صنائع الإنسان بالإنسان فظيعة، يقول المثل يفعل الجاهل بصديقه ما لا يفعله العدو بعدوه، لكن ما فعله بنا بعض العلماء لا مثيل له، ابتلونا بالسلاح النووي، وهو قضيتي الآن، إذا أردت أن يستيقظ اتّفاقنا القديم، إنّه الخراب عينه، أضراره لا حصر لها، مستمرة هنا... وهناك... في الماضي... والحاضر...والمستقبل... مآسيه عابرة للأمكنة والأزمنة.

توقّف فجأة المرح، والضحك، والمزاح، وتحول مجرى الحديث، أحسست بأنني أقف على كوكب آخر، تطاردني فيه مخلوقات غريبة تنفث سموما، وغازات مدمرة، تهدد كوكبنا بالفناء، هززت رأسي وقلت بنبرة متحسرة:

- يستمرّ أثر الإشعاعات لآلاف السنين، ولا تزال مخلفات التجارب النووية الفرنسية في الصحراء الجزائرية، مثل (اليود 131) و(السيزيوم 137)، تحصد الأرواح، وتُفشي حالات غريبة، كعدم القدرة على العيش تحت ضوء الشمس، والتشوهات الخلقية المنفرة، والطفرات الوراثية في الغطاء النباتي والسلالات الحيوانية، وزوال

مظاهر فصل الربيع، وتراجع عمر الإبل الطبيعي، وتلوث الجيوب المائية، وقحط الأرض... الكوارث المرئية كبيرة، يصعب حصرها، والخافية أعظم، ولفداحة الوضع، لا تزال فرنسا تتكتّم على بطاقات مقابر المواد الإشعاعية، وحجم المخلفات النووية ومكانها، وحتى على السجلات الصحية للضحايا.

هزّت نورة رأسها باستنكار، وقالت:

- التلوث الإشعاعي يتربّص بنا في كل مكان، لا ندري من أين يخرج لنا، وهناك بلدان قوية، منتجة للنووي، تستغل حاجة بلدان أخرى، ونتانة قياداتها، وتبتلي شعوبها بعقد صفقات سرية، تُخوّلها طمر نفايات مصانعها، ومخابرها، ومستشفياتها، في أراضيها.

قالت صبرية بحماس:

- لا تكفي الحلول السياسية والقانونية لمواجهة التلوث الإشعاعي، لا بد من حل علمي، أنا أعمل حاليا في المخبر في هذا الاتجاه.

- في أي مجال بالضبط؟ سألتها نورة باهتمام.

فكرت قليلا، كادت تخبرها بأنها تفكر بموضوع مشروعها ثم تراجعت، تذكرت توصيات طابتي، وتأكيده على السرية والكتمان، فأعطتها الواجهة المعروفة:

- تطوير الكشف الطبي النووي، أعمل حاليا على مجموعة من اليرابيع.
- إذن، قضيتنا واحدة، سأساعدك بكل الوسائل، وسأعمل على تسهيل تواصلك مع باحثين وأطباء في الداخل والخارج، أكدت لها نورة بغبطة.
- سأعمل على ضمان التغطية الإعلامية اللازمة، والتحسيس بأهمية خطواتك، قلت لهما مساندة.
- سأعمل قبل سفري على تنظيم جلسة عمل مع باقي الأعضاء، أضافت نورة بحماس.
- أعدكم بأن أحفّز عليلو على مساعدتكن، شاركتنا رفيقة اهتمامنا، على غير المتوقع.
- سنخصص ملفا لكل انفجار، اقترحت نورة طريقة للعمل ثم نظرت إلى صبرية وأضافت : إلى ماذا وصلت مع اليربوع؟

نظرت إليها رفيقة نظرة تسحب تضامنها، بدا على ملامحها أن ثمة في فمها حديث لم يكتمل، وقالت محتجة:

- عوض أن تُقنعها بأن تفكر بزوج، تشغلينها بجربوع!

قُبلة ألم

وصلتُ مرّة أخرى في اللحظة التي أتجنّبها، تسمرّت في مكاني، جمّدتني تلك النظرات المفعمة بالحياة، المزروعة في وجه مُكفّن بصُفرة الموت، وجسد صغير مُنهك، ذي تجربة كبيرة مع لدغات الحُقَن، انبعث من أنفاسه نداءٌ لاسع، تناهى إلى أعماقي حارقا: « نحن مجرد رحّالة مساكين! نخرج للوجود من صلب بذرة المعاناة، نَعْبُرُ بجراحنا، وصُرَر ذكرياتِنا، من مشهد إلى مشهد، في هذا المسرح الكبير الذي يُسمّى الدنيا، ونلعب أدوارًا شتى، ببداية لا نملكها، ومن أجل نهاية نجهلها، وندفع ضريبة رغَبات آبقة، تتوالد في الأنفس كما الأجنَّة في الأرحام!»

انتفضتُ كالمقرور، خشيت أن يتكرر المشهد الذي حضرته أكثر من مرة، منذ بدأت أتردَّدُ على هذا المكان الذي يتفنّن في اعتصار ألمي، بحالات ناسه، والصرخات المرتجة في أنحائه، ونظرات رُوّاده... يبدأ العلاج، وتنْبلِجُ شمعةُ أمل، ثم تحلُّ العتَمة التي لا نور بعدها، وأشفقت على خضرة من الصدمة، كانت تُثبّتُ نظرها في أنبوبة الاختبار بعين كسيرة، وقلب واجف، تجنّبت النظر إلى عيني أمل الدّاكنتي الجفنين، لكنّها أجبرتها،

ضغطت على ذراعها بيدها الطَّرية، التي تُشبه كَوْمة حرير حِنْطي اللون، وسألتها السؤال ذاته:

– هل هي مُؤلمة؟

ابتسمت خضرة ابتسامة لا تتلاءم مع كمية الحزن المتراكمة في نظراتها، وقالت مُطمئنة:

– هل القُبلة مُؤلمة؟

هزّت رأسها بالنفي، ففتحت لها ذراعيها، وقالت:

– أعطني قُبلة ألَم...أمَل...

تحرّك محيط شفتيها حركاتٍ عشوائية، وضمّتها إلى صدرها بقوة، تدهس إحساسها بزلّة لسانها، ثمّ لثغت خدّها بقبلة طويلة عميقة، بينما غرزت زميلتها الممرضة الإبرة في ذراعها، وسحبت كمية الدم اللازمة للفحص الدوري، صرخت أمل، وانفجرت بالبكاء، فربّتت قحف رأسها المستفرغ من الشعر، وهمست لها:

– يبكي الشيطان لأنه محروم من هذه القُبلة، الملائكة لا يبكون!

هفهفت ابتسامة على شفتيها الغضتين، تبدّلت ملامح خضرة وتمتمت: «يا ملاكي!» مدت يدها إلى جيبها، ولوحت بها في الهواء، قائلة: «من يريد هذه الشكولاتة؟» لم تعرها اهتمامها،

أرخت ملامح وجهها، وقالت بنبرة منكسرة: «أريد ماما!» أوقعتها مرة أخرى في فخ الإجابة، لم يكن سهلا أن تكشف لها الحقيقة، ولا أن تُبقيها طيَّ الكتمان، تهدّج صوتها، تسمَّرت نظراتها في المخدّة، وسافر خاطرها بعيداً، اجتاحت مخيلتها صورة هادية، أم أمل، وهي تقف واجمة، تُقاوم الدموع، ودوخة العلاج الكيميائي، لم تعرف بماذا ترد وهي ترجوها أن تأخذها معها، اكتفت بأن حضنتها بقوة ثم انسحبت انسحاب ورقة خريف تُودّع غصنها، تهاوت على سريرها في المصلحة المقابلة، وتركت لخضرة دوخة الكلمات، ووجع الذكرى، تيبّس الدم في عروقها حين أمسكت بيدها، وطلبت منها أن تتكفّلها، بدا وجهها كقشرة ليمونة جفّ ماؤها، وراح قلبها يدق كطبل أجوف، ومع كل دقة يهتز رأسها بعنف، ويضطرب فكّاها، استجمعت أنفاسها بصعوبة.

– سترين أحفادها، بإذن الله! حاولت أن توقف حديثها عن الموت.

تنفست هادية بصعوبة، تهاطل العرق على أطراف وجهها، بشكل يكشف عن حِدّة إرهاقها، وقالت:

– لم يترك الوباء الخبيث أحدا يمكن أن أوصيه بها، فَتكَ بوالدها، ومن بقي من أقربائها هو إما تحت وطأة المرض أو الإعاقة، يبدو أن إزالة الغدة الدرقية لم تكف لإزالة جذور الورم، سئمت، سئمت وخز الإبر، وآلام العلاج الكيميائي،

ورائحة الأدوية، وأسِرّة المستشفيات...سئمت الترقب، أُمضي يومي في ترقب الموت، وتصورّ شكله، ووجه العالم الآخر... إحساس فظيع! مرعب! إنه العذاب...لم يعد يمكنني أن أقاوم... وهنت قواي...ويحزنني التفكير في مصيرها من بعدي...عِديني بأن تظلّي جانبها، أنت من (عين أكّر)، وتعرفين ما يمكن أن يفعله هذا الوباء بعائلة، ولا يستبقي على سوى شرنقة ضعيفة، أرجوك ظلّي معها!

صعقتها الصدمة، لم تقو على سحب يدها، أحست بوطأة انسحاب الروح من جسدها، وشعرت بالرهبة والعجز، لم يعطها الموت حتى فرصة أن تسمع بقية وصيّتها، يتكلم الإنسان طيلة حياته، وعندما يكون الكلام حياة لا يسعه الوقت! الوقت أبخل مخلوق على الأرض! يكثر الألم، والحزن، والأفكار، والمشاعر، ويتنوّع الإحساس باللحظات، بحُلْوها ومُرّها، وتتسع الرغبات، وتفسُح الأرض، والسماء...ويضيق الوقت، الوقت هو قاهر الإنسان! شلّ قدرتها على التفكير، لم تعرف كيف تتصرف في تلك اللحظة، اكتفت بأن ردّدت عبارتها المعتادة، بنبرةٍ أكثر حِدَّة: «هؤلاء القوم لا رحمة في قلوبهم! هم أشرّ خلق الله!»

***

الألم يستنسخ نفسه، تتكرر فعاله في نفس خضرة كلما سحبت عيّنات من دم أمل، يضيق صدرها، وتشعر بأن أنفاسها تُسحب منها، ويتعرّى خوفها المكتوم، أكثر من عشرين عاماً

وهي تعمل في ذلك المستشفى، ولم تشهد الكثير من النهايات السعيدة، غالبا ما كان المريض يأتي بغرض علاج عوارض تبدو عادية، ويتدرّجُ الكشف الطبي من التحاليل، إلى الأشعة السينية، إلى الكشف النووي...ويُضاف اسمه إلى قائمة المصابين بالإشعاعات، وتبدأ محاولات قهر المرض بالدواء، وجلسات العلاج الكيميائي، ومضخّات الأمل... ويغادر محمولا على نعش، ويترك وراءه حكاية تتداولها الألسنة بالاستغراب والأسى، إلى حين أن تأتي حالة أخرى، تزيد عنها غرابة وألما.

لم تعد تثق في براءة أشياء عدة، أصبح للذكرى تفاصيل مجزعة، سمّمتها ضغينة اليورانيوم، كبرت على الاستمتاع باللعب في سفوح جبالي (الطّاسيلي)، الشاهدة على حياة إنسان ما قبل التاريخ، وهي تتساءل بفخر: «هل كان إنسان ناجر يتوقّع أن يشهد أحفاده كل هذا التقدم؟ كانت حياته حتما بالغة الشقاء!» ظلّت إلى وقت غير بعيد تحتفظ بحجر منحوت، اعتبرته همزة وصل بينها وبين أجدادها القُدامى، لم تُخبر عنه أحدا، إلى غاية أن وعت حقيقة التفجيرات النووية التي أجراها المستعمر الفرنسي في مرتع طفولتها، بأقصى الصحراء الجزائرية، وتغيّر إحساسها به.

أصبح في نظرها أخطر من ثعبان، وعقرب، وقنبلة...أخطر بكثير، حتى التخلص منه محفوف بالمخاطر، لا يمكن تركه في الشارع كأي حجر عادي، ولا تسليمه للمتحف، اهتدت بعد

تفكير إلى تسليمه إلى الجهات الأمنية، ووشوشت له مودّعة: «هل كان إنسان ناجر يتوقع أن يشهد أحفاده هذا الدّمار؟ كانت حياته حتما أكثر صفاء!» لمحتُ هذه العبارة تتردد في عينيها، مع ارْتسامات قهر تاريخي، وهي تحضن أمل، ونزلت الدموع على خدّيها الداكنين كحبات اللجين.

– هي تحتاج إلى بسمتك لا إلى دموعك، ربّتُّ كتفها وقلت لها مواسية.

غرقت في تأمُّلات ملطومة بالحزن، ثم مسحت دموعها، ولملمت بقايا السائل المختزن في مدخل منخاريها، وقالت:

– تداعت إليَّ صورة أمي وهي تحتضر، ضارعة إليَّ أن أهتم بأخوي من بعدها، أنا أيضا جئت من قطعة من الجحيم، تغص بأفاع غير مرئية، تنفث سمومها في كل مكان، أصبحت أفزع من كل ما استمتعت به ذات يوم، المشي تحت المطر، الاستحمام في الوادي... اللعب في البرك... العبث بمياه الفقّارة... افتراش الأحراش... التبارز بسعف النخيل...التزلج على الرمال الذهبية...مطاردة أسماك الرمال...مشاكسة اليرابيع...مررت الحلاوة بأثر رجعي، وانْطحنَتْ الصور الجميلة بين أنياب تصوراتي للواقع، عن تلك الأمخاخ التي تقاطرت كالسمن، والأجساد التي ذابت في صهير الفولاذ، والأطراف والرؤوس المتناثرة كالبقل، والأحشاء المتفتّقة مع

أكياس المؤن، والدماء المتدفّقة في كل مكان، والجلود المتقدة على أطراف الأشياء... نكّلوا بالبشر، والحيوان، والشّجر، والنّبات... ولم يسلم الجماد! رخصت الحياة إلى حدّ غير مسبوق!

صمتت خضرة قليلا، تستحضر تفاصيل الواقعة، ثم أضافت، من دون أن ترفع بصرها عن وسادة أمل:

- استمر الباقون يتنفسون السموم، ويشربونها، ويحملونها في أجسادهم، وهم يظنون أنفسهم ناجين من المحرقة، لم يخطر ببالهم أن المحرقة مستمرة إلى أجل غير مسمى، إنه الجمر الذي لا يخمد، الجرح المفتوح على المِصراعين، مات أعمامي الثلاث بأورام الغُدّة الدّرَقية، وخرجت أختي إلى الوجود في صورة مسخ، ولا أستبعد أن يحمل دمي العجب، أرْتَهِبُ من مكنونه، لدرجة أن حرّمت عليه الاختلاط بغيره، أرفض الزواج، تُرعبني فكرة أن أنجب مسْخا، أو أن يكون القماط كفنًا.

صمتت قليلا ثم أشارت إلى أمل، التي كانت تحت تأثير المنوم، وقالت بنبرة مُتحسرة:

- ملاك! ما ذنبها لتعيش على رُزْنامة الموت؟

- هي رُزْنامة الحياة، بإذن الله! اعْترضْتُ على تشاؤمها.

نظرت إلى ساعة يدها بقلق، وكأنها تَعُدُّ عليها أنفاسها، وقالت:

- أوصت أمي بي جارتنا وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة، لم يمهلها الموت الوقت الكافي لتُكلّم غيرها، فعملت بالوصية وقامت برعايتي، وظلت تهتم بي إلى حين أن أصبحت ممرضة، وتركت لي بعد وفاتها بيتا وعائلة.

قلت لها بنبرة مُتعاطفة:

- ستفعلين مع أمل الشيء ذاته، أليس كذلك؟

فتحت عينيها وُسعهما، وكأنها تلقّت صفعة، وقالت:

- تأخّرت صبرية، أمل تحبها، وتثق بكلامها.

- هل أخبرتها بأنّها ترفض تناول الطعام منذ أمس؟

- نعم.

- إذن، ستأتي.

لم أكد أكمل كلامي حتى برزت ابتسامة أمل، كشعاع منير، التفتت إلى جهة الباب فوجدت صبرية تدخل علينا، وتتجه إليها، وبادرتها، معاتبة:

- ما هذا الذبول! يبدو أنك جوعانة مثلي، سنأكل معا، هل تسمحين بذلك؟

كنت أعرف أنها لن تتأخر عن زيارتها، كانت تتابع باهتمام مراحل خضوعها لعلاج تجريبي، وتعوّدت أن تمضي معها بعض الوقت، تلعب وتمرح معها، وتُطعمها بيدها، ثم تُسجّل ملاحظاتها، وتستكمل معنا زيارة المرضى، أنا ومجموعة من أعضاء الجمعية، أصبح وقتها موزعا بين المستشفيات والمخبر، ومعظم نهارها تلتهمه عتمة المخبر، ومعظم ليلها يستغرقه ضوء مصباح المكتب الملتهب..افتقدت الراحة، وتزعزع شعورها بالأمان، وهي تحتك يوميا بالخطر النائم في أنابيب الاختبار، الذي يتربص بها في أي خطأ في التفاعلات، لينسف المخبر بما فيه، ويفشي الدمار، أو يتسلل إلى جسدها، من أصغر منفذ محتمل في السّترة الواقية، لكن ما من خيار، لم يعد يمكنها أن تتراجع، بعد أن رأت عذابات ضحايا الإشعاعات عن كثب، وترجرجت استغاثاتهم في داخلها أكثر من مرة : « أما من وقاية، أما من حل! نحن نتكاثر للعذاب، نحن قرابين حضارة الإشعاعات!»

***

سحبت كرسيا جلست عليه، ورُحْت أتأمل أمل وهي تغط في نوم عميق، قلت في نفسي بحسرة: «من تُطاوعه نفسه أن يُعذّب ملاكا هو الشيطان عينه!» أفرجت عينها عن دمعة محتجزة، وندت عنها ابتسامة غضة، جعلت الأحاسيس تتدافع في داخلي، أخرجت دفتري وقلمي، من دون أشعر، ورحت أعتصر الحبر وأُفَرّقُه على أشلاء الحروف، امتلأت السَّلة بالورق، ولم أهتدِ

إلى فاتحة مقال، كنت انتقلتُ حديثا من قسم المنوّعات إلى قسم التحقيقات، وأردت أن أُثْبِتَ للمدير أنني جديرة بالترقية، من قسم يضم غالبا الأقلام المبتدئة وغير المُتفرّغين للعمل الصحفي، إلى صفّ المحترفين.

أردتها بداية قوية، وفكرت في كل ما قد يستقطب اهتمام القُرّاء: عالم الجريمة، وكواليس العدالة، ونهب الأراضي، والصفقات العمومية الصورية، والتعيينات غير المستحقة في المناصب، وتزوير نتائج المسابقات، وتسريب مواضيع الامتحانات، والاتجار في الشهادات العليا...تراكمتْ المواضيع في خاطري، ولم يخطر ببالي موضوع ضحايا الإشعاعات، لكن الدمعة التي اعتصرتها عين أمل جاءت حاسمة، لم تترك لي أي مجال للمُفاضلة، أصبح موضوع أول مقال واضحا، لكن الكلمات خذلتني، لم تساير إحساسي بها، وقَعتُ في فخّ العاطفة، الشيء الذي حذّرنا منه مرارا أستاذي في كلية الإعلام، قائلا: «الإعلامي المِهني هو الذي يُجرّد قلمه من الذاتية، تغليبُ العواطف سَقْطة، يؤدي إلى تحجيم رسالة عامّة إلى خاطرة، وقد تتحوّل ذاتيّته جلّادا.»

ركزت على إحساسي بوضع أمل، الطفلة المعذبة اليتيمة، التي يتشرب اللوكيميا نُسْغَها بضراوة، ولم أركّز على المِغْرفة التي تستسقي لها العذاب وللكثيرين من أمثالها، واستمررتُ أكتب وأُمَزّقُ، من دون جدوى، ثم طغت خاطرة طريفة في ذهني،

ذكرت قول أينشتاين (إذا ادَّعيت أنك تفهم فكرة ما فيجب أن تكون قادراً على شرحها لجدّتك.) وبدأت أكتب لجدّتي، تصوّرتُ أن تكون الكلمات أكثر انْصياعا لقلمي، وأقلّ تنْكيلا بأحاسيسي، ولم أحْزِرْ، تراءت لي صورتها وهي تهزُّ رأسها أفقيا وعموديا، وتضرب صدرها بيدها، وتقول بنبرة رثاء لاذعة: «عفّرتِ شيخوختي في دمعة هذه الطفلة، أين أنتم ممّا يحدث!»

أفهم انفعال جدتي الورقية، لعلّها تصوّرت جيلنا مختلفا عن جيلها، حُرّا، ومتعلما، ويعرف كيف يحفظ حقوقه، ويؤدي واجباته، وظنّت أن الاستقلال هو نهاية معاناة الشعب من جرائم الاستعمار، فإذا بقلمي يصدمها باستمرار المأساة، وهكذا وجدت أخيرا الموضوع الذي يصلح مقالا، ولم تُسهّل جدتي عليّ الأمر، انفعلت بشكل يُهدّد بإلغاء قرار ترقيتي، وإعادتي إلى قسم المنوّعات، صدق أستاذي: « الاعتماد على الخواطر في بناء الخبر الإعلامي سقْطة!»

ذات الجناحين

جاءت إلى مكتبها باكرا، راجعت مجموعة من الملفات وحملتها إلى غرفة الاجتماع، ظنت نفسها أوّل الواصلين، بعد بشير الحاجب، لكن مجرد أن أضاءتها، اكتشفت أن هناك من سبقها، وجدت نفسها أمام جثة قوية البنية، منبطحة، بطولها الذي يتعدى الأريكة، عارية، إلا من سروال، وإزار متدلّ على الأرض، يُغطي بعضها، تأمّلته مليّا، حمدت الله على أنه يتنفّس! بدا لها مختلفا عنه وهو صاحيًا، أكثر بساطة وطيبة، اختفت تلك الملامح الجادة، والنظرات المنقبضة، وتراخت تعابير وجهه بشكل ربيعي، يوحي بالطمأنينة، حتى ولو احتفظ بتلك السحنة ذات الوقع الأسطوري، التي تبث الشعور بأنه حارس أسرار غابرة، يحرص على وضع يده تحت خدّه خشية أن تتسرّب أثناء غفوته.

تملّكها حنو غريب، واشتعل فضولها، اقتربت تختطف النظر إلى عناوين الكتب المتناثرة حوله، كان أغلبها لا يمت لتخصصه بصلة، اقتنص بصرها بعض العناوين، وانغرس بينها ملف لا يظهر سوى شطره « ملف الـ..»، خشيت أن يستيقظ،

تراجعت إلى الوراء على أطراف أصابع رجلها، وأطفأت النور، وقبل أن تُكمل إغلاق الباب، ارتحل إليه وجذبه دفعة واحدة، وجدت نفسها في مواجهة ما فرّت من رؤيته، شعر منكوش، وعينان محمرّتان منتفختان، بحيرتان ساحرتان من غير نظارة! كانت تلك هي المرة الأولى التي سمحت فيها لنفسها بأن تُثبّت نظراتها في عينيه، امتلكت هذه الجرأة لتتجنب النظر إلى صدره العريض، المكسو بالشعر.

بدرها بالتحية:

- صباح الخير.
- صباح الخير، دكتور.

ردت التحيّة بصوت خافت، وأسرعت إلى مكتبها، امتخض كيانها بقوة، احتاجت لبعض الوقت لتكبح اهتزازاته، مرت لحظات قبل أن يرفع السماعة ويستدعيها، كان قد استعاد مظهره المعتاد.

- تأخرت البارحة في دراسة ملف، دهمني الليل والتعب، واضطررت إلى البقاء، قال مبررا ثم ابتسم وأضاف بنبرة مشاكسة: أعتذر منك، أربكتك! الذنب ذنب المنبّه الذي لم يستجب في الوقت المعتاد، تواطأ عليكِ!

شعرت بالدماء تتدفق غزيرة إلى جمجمتها، وتحول وجهها بركة حمراء، وهو يخفض صوته ويرفعه بإيحاء مُلابس،

انشغلت بالإجابة عن السؤال: «علام تواطأ المنبّه؟» قطع عليها أفكارها بابتسامة مشاكسة، وصوت هامس:

– رائعة، وأنتِ خجلة! تُشبهينها!

مد يده إلى كومة الأوراق والكتب المتناثرة على الطاولة الصغيرة، وجذب كتابا، فإذا بعنوان الملف يظهر لها كاملا (ملف اليربوع)، ظنته سيحدثها عنه، لكنه على غير المتوقع قلبه بسرعة، وأشار إلى تمثال امرأة يتصدر غلاف كتاب آخر، كانت تعتصب قرص الشمس، وعلى جسدها تتهاوى أشعة متفاوتة الطول والسُّمك، خمّنت أن يكون تمثال (فينيس) إلهة الجمال الرومانية، وتجنبت أن تسأله عن وجه الشبه بينها وبين ذالك التمثال.

– حضري لي جميع التقارير التي وصلتنا من المخابر الشهر الفارط، سنبدأ الاجتماع في غضون نصف ساعة، غيّر الموضوع.

– الملخصات جاهزة، ردت مطمئنة، وهمت بالانصراف، فاستوقفها بإشارة من يده، وقال:

– لو كنت طلبته مني أفضل من أن تُهلهليه بنظرات الفضول! الكبرياء في غير محلّه خاطأ، يا دكتورة! على رأي الشاعر أحمد شوقي، تؤخذ الدّنيا غِلابا!

تسارعت دقات قلبها، وتضاربت أحاسيسها بين الخجل، والحرج، وقالت في نفسها: «ما هذه التوطئة الصباحية، التي بدأت

بالتشبيهات، والكنايات...والمحسنات البلاغية، وانتهت بالشعر! أغلب العاملين بالمخبر يراهنون على كونك تُراجع الحسابات الفيزيائية في سرّكَ، عندما تكون صامتا، فإذا به الشعر! الشعر يا أبا الهول! منذ متى؟! ولماذا؟» غمرتها نشوة ظرفية خلال تلك الخطوات التي قادتها إلى مكتبها، ثم انتكست مجرد أن استحضرت ذاكرتها عاهة (فينيس)، ذراعيها المبتورين، تغلّبت مرارة الفكرة على حلاوة تلميحاته، ألقت بالكتاب أرضا، ورفعت تنورتها الطويلة، وثبتت بصرها في موضع الندبة، التي تحفر شبه أخدود في أسفل ساقها، ثم عادت تثبت نظراتها في ذلك الكتاب، فإذا به يترجرج في عينيها في صورة مختلفة، وساورتها فكرة أن ترفعه كما هو، وتقرأ الصفحة التي يرتّبها لها الحظ، كانت المصادفة غرائبية، وقعت على حوار بين إنسية وربّ الطيبة.

– أنت أهمُّ من أن يُقال عنك جميلة، أو ذكية، أو جذابة... أو أي صفة من الأوصاف التي يمكن أن تُرضي بشريّة! أنت ملاك يا ذات الجناحين، قال (سوخون).

تغرغرت عيناها، وقالت:

– ملاك! قل دجاجة تنقر في الأرض! الملائكة مكانها في العلو، وليس في السُّفْل.

– وهبتِ جناحيك سقفا لهؤلاء العُراة التائهين! طوبى لمن يمنح من نفسه للآخرين! من يرفع سقفا يحمي غيره، فهو حتما أعلى من السقف، إنه في العلو، حتى ولو مشى في السُّفْل.

تمعّنت في الغلاف، لم يكن تمثال (فينيس)، وقرأت العنوان: «ذات الجناحين»، وقرأت في الجهة الأخرى من الغلاف ملخصا عن بطلة الحكاية، كانت امرأة شديدة الجمال والذكاء، وخدوما، تساعد الناس بما يتأتّى لها من الوسائل، فدعا لها أحدهم بأن تكون عالية الشأن، وكانت أبواب السماء مفتوحة لدعائه، جاءها ربّ الطيبة بعدها بفترة قصيرة، وأنبت لها جناحين عملاقين، يمكّنانها من أن تحلق حيث تشاء، لكنه بالمقابل أخذ منها جمالها، قائلا: «الشكل سُلّم الهابطين، وأنتِ الآن تُحلّقين في السماء.»

شعرت بالرضا، عرفت متعة التحليق عاليا، وأصبحت تجوب الأمصار، وتظلل على الأنفس، وذات مرة لمحت في الأفق أشعة شمس حارقة، تتجه إلى قوم يعيشون في العراء، وخشيت عليهم من أن تحرق جلودهم، وتكبس على صدورهم، وتُجفف نبعهم، وتهلك زرعهم، فيهلكون، نظرت حولها فلم تجد ما يمكن أن يدرأ عنهم الخطر سوى سحابتين هائمتين في قلب السماء، فبذلت جهدا لتدفعهما نحو مكان إقامتهم، لكنها لم تستطع أن تلصقهما ببعضهما، بقي الفراغ الذي بينهما يسمح بمرور تلك الأشعة، جربت أكثر من حلّ، ولم ينفع لسدّه، واهتدت بعد تفكير إلى أن تقطع جناحيها، وتصنع بهما جسرا يربط بين ضفتي السحاب، وكان للقوم في ذلك نجاة من الهلاك، أما هي فعادت تعيش على سطح الأرض، مثلما كانت، ولكن في صورة مختلفة، اختفى الجناحان العجيبان، ولم يعد إليها الجمال والشباب المدفوعان ثمنا لهما.

تملكها الفضول، رغبت في قراءة كامل القصة، لكن النصف ساعة قاربت على الانقضاء، وكان عليها أن تخبره بجديد مشروعها، قبل الاجتماع.

– وصلت الشرائح الالكترونية، هل نبدأ بزرعها؟ قالت تطلب رأيه.

– بأسرع وقت ممكن، هي شديدة الحساسية، احفظيها بعيدا عن الإضاءة والرطوبة!

– لا تقلق، تعودت على ذلك.

– واليرابيع؟

– أفضل مني حالا، أصبحتُ مؤهّلة لأن أؤلف قاموسا للغتها، قالت له ممازحة ثم أردفت بنبرة حازمة: أنتظر نتائج الجيل الثالث، وأحتاج لأن أطلق المزيد في مكان التلوث، أريد أن أتأكد من تأثير الجو المشع عليها بعد إخضاعها لجوّ مطهر.

– وضعت في الحسبان نسبة الهلاك الطبيعي؟

– طبعا، سأطلق الأعداد الكافية.

– ألغي الاجتماع، وجميع مواعيدي اليوم، واطلبي من البروفيسور عماد أن يحضر معنا، ليعطينا رأيه في صور الأشعة المأخوذة لليرابيع، لديه خبرة كبيرة في مجال الطب النووي.

– وفريق المخبر؟

هز رأسه بالنفي، وقال:

– لا يجب أن يطّلعوا على أكثر مما يُطلبُ منهم القيام به، ثم عاد يسأل: متى السفر؟

– ربما في غضون الشهر القادم، أفضّلُ أن أذهب مع أعضاء الجمعية، هذا سيسهل مهمتي.

هزّ رأسه مستحسنا وقال:

– أفضل، فيمكن أن يتصل بنا أصحاب ذلك المخبر في أي وقت، لأجل التفاصيل.

دعّمها طابتي خلال سنوات بتشجيعاته، وخصص لها فريق عمل مؤهل يعمل تحت إشرافها، ووفر لها جميع ما تحتاج إليه من مواد مخبرية، كان إيمانه بنجاحها كبيرا، ووعدها بأن يسهل لها إقامتها في الخارج، المدة التي تكفي للتحقق من تجاربها ميدانيا، فجعل الأحلام تحلق بها بعيدا، كانت تريد المزيد من التفاصيل، لكن انضمام البروفيسور إليهما قطع حديثهما.

– أريد رأيك بشأن بعض اليرابيع المحقونة بالإشعاعات، بدره طابتي بالسؤال.

أمسك بمجموعة من الكليشيهات وثبتها على الجهاز، وراح يفحصها واحدا واحدا، وقال لها، من دون أن يلتفت إليها:

- أعجبتني الكلمات التي تركتها جانب الأقفاص (...إنه موسم صيد الإنسان للإنسان...)، لم أعلم بأنك أديبة.
- اقتطفتها من كتاب... همت بأن تقول «ذات الجناحين» ثم صمتت، اعتبرته من خصوصياتها.
- الكارثة كبيرة، أكبر من أن يستوعب تفاصيلها كتاب.
- معك حق، يجب أن تستوعب تفاصيله المخابر، كأن تتم عملية تطهير الجينات المصابة، وإعادة تأهيل الحمض النووي.

رمقها طابتي بنظرات قلقة، وأومأ لها بأن تصمت، ومجرد أن غادر عماد نبّهها، قائلا:

- دوره يقتصر على الفحص الإكلينيكي لليرابيع، لا يجب أن يعرف شيئًا عما يجري لها.

صمت قليلا، وحررت ملامحه آثار القلق، وأضاف:

- لم تدرجي التركيبة الأساسية، والمراحل التفصيلية للتفاعلات، هذه كلها فرضيات، وملخصات، ومعادلات ثانوية.

نظرت إليه باستغراب، لأنها حرصت على شحن كامل الملف، وتأكدت من نسب المراد تركيبها، ودرجة حرارة تمييعها، وانضغاطها في عبوات، وطريقة تحريرها، والظروف المناخية التي تسمح بتحريرها في الجو بأمان، فتتحد مع جزيئات الإشعاع، وتفكك روابطها، وتثقلها بالالتصاق، ثم تنزل بها إلى الأرض في شكل سماد طبيعي.

- أعيدي شحنه، وابعثيه لي مع بشير، يجب أن نرسل إليهم جميع التفاصيل، ستخضع لتقييم مجموعة من الخبراء، وبعدها يتقرر مصير المشروع، أضاف بقلق.

أمالت رأسها قليلا نحو اليمين وشحنته في بؤبؤ عينيها بالإمتنان، تراءى لها خارقاً، وذكياً، وألمعياً، وماهراً، وباهراً... يفعل الأعاجيب، حالة جليّة لأنموذج تداولته مخيلتها سنوات، وعثرت عليه بعد أن كادت تفقد الأمل في أن يكون موجودا، ويمشي على قدمين.

- أخيرا سيعرف اليربوع حياة مغايرة! قال مستدركا.
- الإنسان هو من يجب أن يعرف حياة مغايرة، ردت منبهة، كلما قضى إنسان على مشكل، أوجد إنسان مشكلا آخر، قد يكون أصعب، وأغرب، وأشد إضرارا، المشكلة الحقيقية هي أن الإنسان احترف الاستثمار في المشاكل.

***

كنا بصدد زيارة لرقان، أنا وبعض أعضاء الجمعية، وعرضت صبرية مرافقتنا، وجدتها فرصة لتقوم ببعض الأعمال التي تتعلق بأبحاثها، وهو ما استحسنه طابتي، وحضي على غير المتوقع بدعم جدتها حمامة، أرجح أنها اطمأنت لوجودنا معا، أنا وهي، وسمحت لها بأن تمضي أسبوعا كاملا في الصحراء،

من دون أن ترهقها بتلك التحقيقات المتكررة عن سبب السفر وظروفه، وساعاته، وتفاصيله... وأعلنت موافقتها، على غير العادة، قبل أن تأخذ رأي حفيدها موسى، تغيرت كثيرا في الآونة الأخيرة، ربما هي أحكام السن، أو لعلها الرغبة في الهدوء والراحة، بعد متاعب المسؤولية الثقيلة التي تحملتها طيلة سنوات، تكفلت خلالها بتربية أولادها اليتامى، بعد أن استشهد زوجها في حرب التحرير، واهتمت بعدها بعائلة ابنها محمود، بعد أن هاجر... عانت الكثير في حياتها، عرفت سجون الاستعمار، وغبن الترمل، والحاجة، ولعل ذلك هو سبب طباعها الخشنة، وردود فعلها الصدامية، التي لطالما عانوا منها، كانت قبلا تُحكم قبضتها على كل شاردة وواردة في البيت، ولم يكن أحد يجرؤ على مناقشة قراراتها، باستثناء موسى، أكبر أحفادها، كانت تكن له معزة خاصة، وهو بدوره يحسن كيف يسترضيها، ويتودّد إليها.

هم ثلاثة ذكور وثلاث بنات، أكبرهم بهيجة وأصغرهم ربيع، صبرية تصغر ميمونة بتسعة أشهر وتكبر ربيع بسنتين، تساووا في العدد، ولم يحدث أن تساووا ولا مرة في المكانة، كان للذكور حظوة خاصة، لا تعلو عليها سوى سلطة جدتهم حمامة، حتى والدهم كان يستعين بهم أحيانا في استرضائها، أما حفيداتها، فلم تكن تمارس سلطتها في صالحهن إلا نادرا، في حالات تستدعي استتباب الهدوء داخل البيت، عدا ذلك لم يكن في صالحهن استثارتها بإلحاحهن، فعلى الرغم من طيبتها المشهودة، كانت نرفزتها كذلك مشهودة، تشاجرت مرة مع جدتي، عمة كنّتها،

مد عمر يده ليساعدها على جمعها، فسبقته يدها إليها، لم ترد أن يقتطفها نظره، وبعدها استكملت جمع الصور الرّاقدة على البساط، قلّبتها بين يديها ثم مرّرت إلينا ورقة مقتطعة من جريدة قديمة، يظهر فيها الرئيس شارل ديغول وهو يخطب في مكان تنفيذ عملية اليربوع الأزرق، ساعة قبل الانفجاره، فاستفزّتني ملامحه المفعمة بالشعور بالظفر والزهو، لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير بصوت مسموع:

- الرجل الثوري الذي كان يُلهب حمية الفرنسيين من لندن، ويحثهم على مقاومة الاحتلال النازي، هو ذاته قائد الدمار، الذي استعمل مواطنيه، من الجنود الفرنسيين، كفئران تجارب، وأباد شعبا أعزل، لا ذنب له سوى أنه وقع فريسة لاستعمار وحشي، طيلة قرن وثلاثين سنة، احتلّ وطنه، واستباح حقوقه بالقهر، والتجهيل، والقتل، والتنكيل، وحاول طمس هويته بكل أنواع القذارة.

كان عمر يعبث بطرف شاشه الصحراوي، الذي يلتف حول رأسه لعدة دورات، ثم وصلنا صوته مدويا، وكأنه ينفجر فينا:

- كانت عملية اليربوع الأزرق كارثة بكل المقاييس، وافق الانفجار فترة هبوب الرياح الرملية، التي زادت من انتشار الإشعاعات، وفاق نشاطها الإشعاعي المعدل بمائة ألف مرة، وصلت سحابة مشحونة بعناصر

مشعة إلى النيجر، ومالي، وليبيا، وتم تسجيل تساقط أمطار سوداء في جنوب البرتغال، بعد ثلاثة أيام من التفجير، وهو ما أكدته مذكرات (إيف روكار) مدير برنامج الأبحاث الذي أنتج القنبلة الذرية الفرنسية.

- إنها جريمة حرب، لو كان (ديغول) حيا، لتمّت مقاضاته أمام المحكمة الجنائية الدولية، قالت نورة بنبرة جازمة.

هزّ سمير رأسه وقال بنبرة تختزن الألم:

- المحكمة التي تتنفس هواء الفيتو! نعم، نعم... هو ذاك! المراهنة على العدالة الدولية تشبه التحليق بجناحين من ورق، يؤسفني أن أصدم حماسك، لكن الواقع الحقوقي خاذل، ولد اتفاق روما، الذي يتضمن النظام الأساسي للمحكمة الجنائية الدولية عام 1998م، من رحم مشوه، تغلّبت إرادة القوي، كالعادة، وأفرغته من أهدافه التي ناضل لأجلها أحرار المجتمع الدولي، منذ الحربين العالميتين، وحظي مجلس الأمن بسلطات واسعة، تسمح بتأثير إرادة الدول النافذة على سير إجراءات المتابعة والمحاكمة، وتمّ، بالمقابل، تقييد سلطات المحكمة في المتابعة والعقاب، لتظل العدالة على الأرض الجرح الذي لا يندمل، يعيش الشيطان حاليا أفضل حالاته

قالت نورة بتصميم:

– المعركة كبيرة لكنها تستحق أن نخوضها، لأجل الإنسان، رمز الحياة.

حمي وطيس الحديث، وراح كل واحد يشرح نظرته إلى مسألة التعويضات ومعوّقاتها السياسية، والقانونية... والواقعية، ولم يبد على صبرية أي انفعال، حدّقت إلى الصور والوثائق التي بين يديها، وكأنها تراها للمرة الأولى، ثم أعادتها إلى المحفظة بحرص، ودحرجت جسدها قليلا نحو الأسفل، وأطلقت نظراتها، من وراء النّظارة الشمسية، نحو آفاق بعيدة، طال الطريق، وضخّ الوقت الملل، فعادت تفتحها، استخرجت صورة أخرى، وناولتني إياها.

– يبدو أن لديك ملفا تاما عن الواقعة، أود أن أحصل على بعض الوثائق، لأنشرها عندما نعود، عبّرت لها عن إعجابي بمعلوماتها.

هزّت رأسها تعبيرا عن الموافقة، وقالت:

– هذه السحابة عبرت إلى مالي، وامتدت إلى غاية الضفة المقابلة للبحر المتوسط، وشمال شرق آسيا، وانغرست في جينات البشر، وسلالات الحيوانات... وانزرعت في مجاري المياه، الشجر... والحجر... والنبات... والهواء... أتدركين هول الكارثة الايكولوجية التي ابتلونا بها!

وصلني تعليق طارق من خلفي مباشرة:

- أتدركين أنتِ هوْل الكارثة السيكلوجية التي بليتني بها! أنا! أنا أدخل في أزمة كلام! تمتم بنبرة حانقة ثم همس لسمير، الذي كان يحبس ضحكاته بصعوبة:

- هي عدُوة نفسها أم عدُوّتي؟ كلما مهّدت لحديث نافع تفجره بحديث نووي!

أظنه سمعته، وتجاهلته، ركزت على الصور التي كانت بين يديها، وتساءلت بحسرة:

- بماذا يشعر من ساهم في هذا الانفجار عندما يرى هذه المسوخ؟

رد مختار بنفس بارد، من دون أن يستفسر عن قصدها:

- لا شيء، هو أيضا مسخ، ضميره ممسوخ.

ساد بعدها صمت كئيب، أخمدت المناظر رغبتنا في الحديث، ولم يخمد فضولي، سألت مختار عن عمر، عندما نزلنا من السيارة:

- لديه ثقافة معتبرة، هل هو مختص في مجال النووي؟

أطلق ابتسامة عريضة، وقال:

- هل تحتاج الثقافة لشهادة؟ أنا أعمل دليلا سياحيا منذ سنوات، وأتعامل مع أشخاص من كل ربوع العالم، هل ترين أنني أحتاج لشهادة؟

شعرت بالحرج، حاولت أن أرمم ما هده لساني:

– التكوين الذي تلقيته في مجال السياحة يؤهلك لما تقوم به.

عقّب بصوت خافت، مكْلوم:

– النَّوَوي هو أول ما يثير انتباه طفلنا، مجرد أن يعي، بل يشغله وهو في بطن أمه، هو موضوع محتوم، تفرضه جراحنا، وأحزاننا، المتوارثة منذ عقود، إنه قدرنا البائس الذي نعيشه في صمت...فجيعتنا العالقة بوجوهنا، وأذهاننا، وجيناتنا.

رقان... البريق النائم!

رفق السّائق بنظراتنا التي يتآكلها الفضول، والانبهار، ولفّ بنا بضع دورات في وسط مدينة أدرار، وضواحيها، غاصت أعماقنا في الأزقة العتيقة، والمساجد، والمدارس القرآنية، التي تنبعث منها رائحة التميّز والأصالة، وطافت مخيلتنا بالأحاديث العالقة ما بين الأروقة المُسقَّفة، المُعَدَّة لاستراحة المارة، وتوفير الظل، وتموّجت أحلامنا مع الطرقات المُلتوية التواء جذّابا، وعشنا حكايات ألف ليلة وليلة، ومدنها السحرية، مع منظر الحرفيين القابعين على جوانب جدران الزّقاق، والقصور ذات اللون الأحمر المرجاني المكتسح، ذات التفاصيل المعمارية البديعة... واكتشفنا تقنيات مذهلة، في التعامل مع الطبيعة وظروفها، تحفظ للبيوت جوّ الانتعاش والطراوة، على الرغم من الارتفاع الحاد لدرجة الحرارة.

سرد علينا مختار قائمة طويلة من الأماكن التي نصحنا بزيارتها، فأدرار تزخر بتراث عريق، وفنون شعبية متميزة، لكن برنامجنا لم يكن يسمح بغير البقاء في رقان، أخذنا الطريق الوطني رقم 6 واتّجهنا جنوبا، نقطع بساطا ممتدا من الرمال

والصخور، تحت لهب الشمس، ووهج الإبهار، ووسط سكون مهيب، نادرا ما يقطعه أزيز محرك سيارة، أو أصوات بشر، قطعنا مسافة تزيد عن المائة وخمسين كيلومترا لنصل إلى مدينة رقان)، عجوز الإبل أو مراح الإبل، كما ورد أصل تسميتها في اللغة الأمازيغية، وهي جزء من المنطقة التي تسمى مُثلث النار، تضمُّ مدن (أدرار) و(عين صالح) و(رقان)، وتُعدُّ من أكثر المناطق حرارة في العالم، ومن أشدها سحرا أيضا، وتُجاورها واحة خلابة، وسهل خصب عريض، وتنغرس فيها أبنية ضاربة إلى الحمرة، تتناغم مع لون حبات الرمل المحيطة بها، بشكل يُبديها كقطعة شفق منقوشة على بساط من العقيق الأحمر والياقوت.

أسرع إلينا عاملان بالفندق، وقاما بنقل الأمتعة إلى الغرف، تردّدت في اللحاق بهم، وددت لو لفّ بنا السائق لفة في قلب المدينة، ولم تُلوّح وجوه الباقين بمثل رغبتي، بدأ الظلام يتسلّل إلى المكان، وأخذ التّعب نصيبه من الأجساد، ولم يعد مزاج الطبيعة رائقا مثلما استقبلنا، راحت خصلات النخيل الباسق، التي كانت تسحرنا بهدوئها وشموخها، تتماوج، وتتصارع مع بعضها بعض، والرياح تعبث بالبساط الطبيعي، وتُخرّب غزْله، وتصاعد الرمل والغبار بشكل لولبي، لمساحة دائرية، تتسع وتضيق حسب قوتها، واندفاعها، وكأن ماردا سلّطها علينا، ليستبقي فضولنا بعيدا عن مغارته!

حذفت السرير بحقيبة يدي، وهرعت إلى النافذة، ثيابي مُغبرة، وشَعري منفوش، ووجهي كتلة رمادية تراقب ما يحدث بحيرة، كشّرت الصحراء عن وجه آخر، لم يتوقّف الغبار عند أول هبوب، ما إن انتهت أول عاصفة حتى استنسختها أخرى، وتعالى عواء الرياح، وجفل الصّحو، وتكسّرت رموشه تحت أقدامها، فحلّ الظلام قبل أوانه، وقهر أشعة الشمس المتراجعة بألم، أمضيت وقتا أراقب المكان ثم أنزلت الستار ودخلت الحمام، فتناثرت حبات الرمل في الحوض، وسدت المجرى، استفرغت المصفاة من تراكماتها، وأكملت حمامي، ثم استرخيت، وراحت عيناي تنتقلان من ركن إلى آخر في الغرفة، إلى حين أن نمت بعمق.

– نحن مدعوون للعشاء خارجا، ضعي وشاحا على كتفيك، الجو بارد، النهار هنا شديد الحرارة والليل شديد البرودة، نبهتني نورة.

استيقظت على رنين الهاتف، وتوقعت أن يكون المساء غير عادي، ومعتماً، تجتمع له أكوام الرمل، وفكرت بإشفاق في مصير النجوم التي يتربص بها ذلك المارد، ورفعت الستار بفضول مروّع، فإذا به الهدوء الساحر! كانت السماء لوحة سوريالية، فيها من النجوم والكواكب ما يتشرب شوائب المزاج، تراءى لي بريق النجم القطبي في قلب السماء، لوّح لي ببريد دافئ، مرسل من جهة الشمال، وكأنه يُذكّرني بأن الروح التي فرّت مني

في المطار لا تزال تترصّدني في طريق العودة، فانفرطت من شفتي ابتسامة عميقة، وشعرت بشوق عارم إلى بيتي.

اتصلت بخالد فوجدته مثلما توقعت لا يزال في المرسم، بث فيه مشروعه الجديد نفسا جديدا، وأصبح يقسم وقته بين الرسم والتصاميم، جلت بكاميرا الهاتف في الغرفة، فطلب مني أن أتوقف عند بعض الأجزاء، كجلد الثور المبطوح عند طرف السرير، والبوق المتدلي على طرف الطاولة، والطرز الذي يزين الوسادات... أبدى إعجابه بالديكور، قال أنه ينفث روحا مختلفة في المكان، ثم سألني عن مخططاتي.

– نحن مدعوون لحضور سبوع أحد أبناء المنطقة.

– لا تتأخري، وابقي مع الجماعة، وانتبهي لما يحيط بك...

سرد قائمة التوصيات المعتادة، التي تتكرر مع كل رحلة أو مهمة أقوم بها، ثم بعث لي بصورة على (الواتساب)، حصلت على منظر غرائبي، في الخارج طبيعة رائقة، متصافية مع نفسها، وبين يدي مخلّفات عاصفة ثلجية، تجثم على بيوت نصف مهدمة، ومهجورة، تسيجها قضبان صدئة، وحولها مخلفات حرائق، ويبوسة...واصفرار، تبدو الحياة فيها جامدة، بلا حركة، ما عدا حركة أدخنة تتماوج من أحد المداخن، في إشارة إلى أن جمر المدفأة لا يزال يتأجج، كان في ذلك شبه كبير بداخلي، لا يروقه ما حظي به، ويوجد ما يستهويه وراء زجاج

النوافذ والحيطان، لم تتناسب لوحته مع مزاجي الذي اتصلت فيه به، كنت أتوق لحديث على شاكلة الهالة التي تحيط بالنجم القطبي.

- ما هذا الطقس السيء؟ أشعر بأنني في مدينة أشباح! قلت له مُعاتبة.

- حقا؟ مع أنني لم أكملها بعد!

استثمر عتابي في الإشادة بقوة إيحائها، فقلت أصعّد من نبرة العتاب:

- تريدها فيلم رعب!

- أريدها فوضى خلّاقة.

أدركت أنه لا ينوي أن يحدثني عنها لحين أن تكتمل، ردّ لي صاعي حين سألني في ذلك اليوم عن موضوع الحلقة التي كنت بصدد تحضيرها، فاكتفيت بأن أقول له بأنني سأغوص في الفوضى، من دون أن أذكر أي تفاصيل، أقفلت باب الحديث عنها، بامتعاض:

- جوّها لا يفرز الفوضى من النظام، إنه القفار...الجنون.

اختطف آخر كلمة قلتها وغمغم:

- جنون...جنون...هو ذاك...سأكلّمك فيما بعد.

***

جاء مختار وعمر لاصطحابنا، ابتعدنا عن الفندق ببضعة كيلومترات، ووصلنا إلى بطحة كبيرة، تنتصب فيها ثلاث خيم، كان القمر يدير لنا نصف وجهه، وصدر الهواء مكبوس، لا يُسرّب سوى نسمات متباعدة، تداعب الوجوه بين الفينة والأخرى، تلألأت النجوم والمصابيح المحيطة بخيمة النساء، لكن لهيب النار المتقدة هنا وهناك كان يلهي عن وهجها، ويختطف الإحساس بحلم بعيد، تغلغلت في جمجمتي كلمات طارق، وهو يقول:

- أنا سِرٌّ حر، تملّص من قلب صخرة عتيقة!

فردّ عليه سمير ممازحا:

- من أي حِقبة أنت؟

فرد طارق بنبرة مباهية، تتعمد أن تلقنه درسا في الجيولوجيا:

- (السنوزوي)، وبالضبط من العصر (البيلوسيني)، الذي ظهر فيه الإنسان البدائي الأول، يعني أفوقك بحوالي خمس ملايين سنة من التجارب والحنكة، يا عزيزي!

ضحك سمير، وقال:

- أظنك أعرق بكثير، أنت حتما من حقبة (الباليوزي)، ثاني الحقب الجيولوجية الأربع، وبالضبط من عصر

(التريلوبيتات) الذي ظهرت فيه سوسة الخشب، عُمركَ الجيولوجي، يا صديقي، حوالي خمسمائة مليون سوسة تنخر في أعصاب الآخرين! هاها...هاها...

شعر طارق بالامتعاض، وأشار له بأن يخفض صوته، لم يكن يريده أن يبلغ مسمع صبرية، وتأخذه على محمل الجد، ثم همس له، مُهادنا:

– أهنئك على هذه الثقافة العالية، تميز بين الحقب الجيولوجية! وتحسن تصنيف العصور! هذه أول مرة أرى فيها رجل أعمال يهتم بغير حقائبه المالية، وتقدير ملايينه، ثم أردف مداعبا: ألا يمكن أن تتسع ثقافتك لغير السّوس؟

ضحك ملئ شدقيه، ربت كتفه وانضم معه إلى رحبة الرجال، بينما اتجه ثلاثتنا إلى خيمة النساء، كان احتفالا بمولود جديد، لعلعت زغاريد النساء، ارتفعت أيادي الرجال بالبواريد والسيوف، في رقصة جماعية حول النار، يرافقها لحن محلي، موضوعه مديح ديني، وإيقاع ثلاثة أنواع من الآلات الموسيقية التقليدية، هي الطَّبل و(المَزْوَد) و(القَرْقابو)، وتمازجت الأصوات، وتباينت الحركات، بشكل حمّس طارق، اختفى للحظات ثم عاد يرتدي الزي التقليدي المحلّي، الشاش والرداء والدرع والحذاء الجلديين، ويُمسك بيده سيفا، وراح يرقص، ويحركه في حركات عشوائية.

- ألم أقل لك أنني أنا رجل عائد من بين صخور التاريخ! قال لسمير بنبرة مشاكسة.

- تاريخ لا تعرف كيف تعبر عنه برقصة! رد سمير مستخفا بزهوه بحركاته.

- عندما يمكنك أن ترقص مثلي، ستفهم بلغة أي عصر أحدثك!

- أعترف لك بخفة السوسة، هذا لك! الكذب حرام! هاها...هاها...

ساد جو من الضحك والمرح، والرقص، والأهازيج... وبعدها حضرت صينيات الطعام، والتف الحضور حولها، مد طارق يده إلى القُلة التي أمامه وملأ كأسه، تناول جرعة صغيرة من العصير ثم صبه في الرمل، وقال لمختار:

- هذا ليس عَرَق!

ضحك مختار، وقال:

- من قال لك يا ابن الحرام أننا نُقدّم العَرَق في ولائمنا!

- ألم تقل لنا ذات مرة، عندما حللت علينا كالصاعقة، بعد العشاء افعل ما تشاء؟ كنت تُغرّر بنا! عاد طارق يلحّ برغبته.

- من أي جاءتك هذه الفكرة يا منحرف؟! صعّد مختار من حدة المزاح.

- من كأس أبي نواس! دعمه سمير.

قال طارق، يتصنع الجِد:

- وتعرف أبا نواس! أصبحت أشعر بخطر رفقتك، أرجوك فارقني، صحيح أنني غضضت مرة الطرف عن هَرْطقتك الجيولوجية، لكن هذا لا يعني أنني سأتغاضى على سطوك على قريحة أبي نواس...هذا لا يُسكت عليه!

- المخلوق يقصد قريحة الشعر، قال مختار يرفع من وتيرة المزاح، ثم غمز لسمير، وقال يؤكد تواطؤه: لمن تحكي زبورك يا داوود! لهذا الخيال الماجن؟!

انفجرا ضحكا، وظل طارق يحتفظ بهدوئه، ويلح على مختار، قائلا:

- من وعد وفى!

همس له مختار:

- لا ترفع صوتك! فضحتنا! هذا مجلس أعيان ورجال زاوية! يعني رجال دين، سيكون لك ما تريده في الجهة الأخرى من الواحة، حيث يجتمع المُتكلّسينَ أمثالك.

حكّ طارق رأسه بأطراف أنامله، وانكمشت تعابير وجهه بشكل يعبر عن اعتذاره، وقال بعد تردد:

- وماذا لو كانت لنا لفة استكشاف في آخر الواحة؟ لمجرد إشباع الفضول.

ضرب سمير قحف رأسه، وقال له مذكّرا:

– آن لنا أن نعود إلى الفندق، لا تنسى أن في عُهدتنا بنات.

سأقوم بدورة قصيرة، لن أتأخر، أنتم جِنّ، أريد أن أجالس البشر، لا أطيق زمجرة هذا الليل المستفز وحيداً، لا تهدأ الأعصاب إلا على رائحة العرق، وصوت إنسي دافئ.

قال مختار بنبرة ممازحة، وجازمة:

– سيُرافقك الجِني عمر، وجهتُكَ غير آمنة للغرباء.

كأس موبوءة

ارتفعت صينية الأكل في خيمة النساء، وبدأن بتقديم الشّاي، حملت كأسي وخرجت منها، كان بالي مشغولا بما قد ينتظرنا في (حَمُّودية)، بثت فيّ أحاديثهن شيئًا من الرهبة، حتى ولو كان بعضها مجرد أساطيرة تتناقلها الألسنة، شعرا ونثرا، لمجرد التنفيس عن العجز، والحزن، والخوف من المجهول، تحدّثن عن زبر من الجن سكنوا المنطقة منذ آلاف السنين، وكانوا يظهرون للخلق في صورة يرابيع، وذات يوم اسْتَرَقَ زعيمهم السّمع إلى مجلس الشياطين، وعلم بأنّهم يخططون للانتقام من آدم، بابتلاء أحفاده بشرّ لا قِبَلَ لهم بدحضه، لا بالموعظة الحسنة، ولا بالمواجهة، وانتبه الشياطين لوجوده، وعرضوا عليه أن يتكتّم على الموضوع، مقابل أن يحظى هو وقبيلته بملكية المنطقة بعد استفراغها من البشر.

حصل الاتفاق في غفلة تامة من الإنسان، أمَّنَ الجن والشياطين مكان الاتفاق بكل ما أوتي لهم من القوة والحيلة، ولم يحسبوا حساب دابة صغيرة، حفرت في أعماق الأرض، والتصقت بأسفل كراسيهم، اطّلع زعيم اليرابيع الطبيعية على

صفقتهم، وأدرك أن شرهم سينال منهم، لأنهم لا يقلون ضعفا عن الإنسان، وأن لا مخلص لهم سوى الدعاء إلى خالق الجميع، فجمع بني فصيلته، وأمرهم بأن يدعوا على أولئك الجن بأن يأخذوا صورة اليرابيع إلى الأبد، وبذلك تطالهم تلك اللعنة، لكن الشياطين عبثت بشفاههم، وحرّفت نطقهم، فدعوا أن يتحوّل هذا الزُّبر من الجن لعنة مُشيطنة، وهكذا هامت أرواحهم في الطبيعة، تتصيّد فرائسها، وتنفث فيها أحقاد سنين، لا تُعتق أي موجود، ووجدت في سلطات الاستعمار خير وسيلة لتنفيذ وعيدها القديم، وتعاونت معه على إجراء تجاربه النووية في الصحراء.

رددت إحداهن هذه الرواية في شعر ملحون، بنبرة قوية ومؤثرة، جعلت أذرعُي تنمل، ووصل إليّ صرير الرّباب كنعيق الخراب، شعرت بأن الثلج يتكوّم فوق رأسي في عز الحرّ، قلت في نفسي: «اللعنة تطارد الإنسان في كل مكان، حتى في خياله الطليق، قدره الخوف حتى من تصوراته.» هزتني الحكاية رغما عني، ربما لأن الخرافة لا تختلف عن الواقع، المأساة ذاتها، سيان إن كان الخطر هو الاشعاعات، أو روح جن ممسوخ... قلّبتُ بصري في كل مكان، وتساءلت: «أين يمكن أن يندس هذا اليربوع الآبق؟ أما من حل ليلقى عقابا شخصيا، بدل هذا العقاب الجماعي الذي ندفع ثمنه غاليا؟»

كان سمير ومختار يلتفان حول النار، اقتربت منهما، وقلت:

- هذه الجلسة تشعر الإنسان ببدء الخلق، تبقى المكونات الأساسية للكون رغم شسوعه أربع: التراب والهواء... والنار...والماء.

أمسك بقشة كانت بين يديه وألقى بها لألسنة اللهب، بينما بصره يطوف بعيدا، وقال بنبرة مليئة بالحزن:

- ما فائدة اتساع الكون إذا كانت الحياة مُجرد معتقل، سياجُه عجزنا، ومخاوفنا، وجنون الآخرين...وسطوة الطبيعة، والأدهى أن الإنسان يقيسُ قُدرته بمساحة أطماعه، لا يعي أن حدوده الفعلية هي أضيق الحدود في هذا الكون، لا تتعدى مساحة التابوت.

هبت علينا نسمة طرية، وتفننت ألسنة اللهب المتراقصة ببراعة في كشف ملامح وجوهنا، ارتجفت السّيجارة في فمه ارتجافاً قلبياً، وتوغلت نظراته في الجمرات المُزغْردات في الحفرة، تأملته وكأنني أراه أول مرة، عينان زرقاوان ثاقبتان، شعر بني اللون يتآكله الشّيْب، ابتدأ الصلع في مقدمته ينحسر عن جبهة عريضة موردة، فوقها ظلال أفكار، وهواجس بعيدة، وأنف ضخم تبرز من كُوّتيْه شُعيرات دغلية، ينتهي بشفتين حزينتين، أخذ النيكوتين نضارتهما، وبدّل لونهما الطبيعي، وبرزت الوجنتان كأنهما صخرتان محفورتان بجبل عظمي، نزلت الكلمات من فمي، من دون أن أشعر:

بقطرة ندى، ونُسْغ قَرنْفُلة على وجهكِ يا شقائقَ النُّعمان
أستنطقُ حكاية زمان، يخلو من الدُّموع، من مِشرط الآلام

حُلُمُ إنسان

الصدق فيه يسكن الأعماق لا خِدعةً تلبسُها الجُدران
أطيافٌ نورٍ تنسجُ بسمَتنا ووردةٌ شذية، حمامةُ سلام

حقُّ الإنسان

نحن نموت مرة، قدرُنا وألفَ مرّة تخنُقنا الأذْهان
التيه في أسطورة الأمان تصفعُنا فظاعةُ الأمام

أين الإنسان؟

الحارق، والناسف، والسّاحق والصاعق... حضارة الدُّخان
تخذلُنا الحكاية، تُرمّمُ الأوهام تكْمِشُنا كمائنُ الأحلام

نَفْتقدُ الإنسان

سألني مختار بتأثر بالغ:

– لِمَن الكلمات؟

رددت من دون أن أرفع بصري عن اللهب:

– لهذه الصحراء.

قال سمير، بدوره، من دون أن يرفع بصره عن الجمر:

– نفتقد الإنسان.

تمعّن مختار في وجهه، وقال:

- نبرتك فيها شجن، سئمت منا بسرعة يا صديقي، أظنك تشتاق لعائلتك.

تسمّرت نظراته في النار لحظات ثم نهض وخطا خطوات بعيدة عنا، وكأنه يتعمد أن يخفي ما يتسرب من داخله إلى سطح وجهه، فاغتنمت فرصة ابتعاده، وهمست لمختار:

- فقد كل عائلته في حادثة انفجار المفاعل النووي (تشرنوبيل)، كان يومها في مهمة إلى موسكو، ولم تطأ قدمه أرضه ثانية، تفحمت جثة زوجته الحامل، وأمه وأبيه...وأصبحت مدينته مسجلة خطر، استقر بفرنسا، وفتح محلا تجاريا، وانضم إلى جمعية لضحايا التجارب النووية، أنشأها جنود فرنسيون تعرضوا للإشعاعات في صحراء الجزائر، توفي الكثيرون من زملائهم في شبابهم، بسبب سرطان النخاع العظمي، وعادوا هم إلى بلادهم مرهقين، شاحبي الوجوه، بأجساد ناحلة، وأعراض أمراض عدة.

- فرنسي؟ سألني مختار.

- أوكراني الأصل، زوجته كانت جزائرية، ولديه ميول إلى كل ما هو جزائري، يفهم لهجتنا، ولا يحسن التعبير بها، لذلك يعتمد على اللغة الفرنسية.

- اسمه سمير!

- دعك من الأسماء، الإنسان هو داخل، عداه سمه ما شئت، نحن من أطلقنا عليه هذا الاسم، اسمه الحقيقي أونير غاسطنياس، ثقل علينا نطقه، ومازحناه باسم سمير، ودرجنا على مناداته به.

- هو هنا من أجل ذكرى زوجته؟

- أسباب عدة يمكن أن تجعله بيننا، زيارة أهل زوجته، مشاركتنا أنشطتنا، تقفي أثر ذاكرة موبوءة...

هز مختار رأسه، ثم حدق إلى كأس التاي الذي كان بيده، وقال وكأنه يهذي: إنها موبوءة، موبوءة...ثم لحق به، بقيت وحدي، أجالس ظلال ألسنة النار المنبثقة في قلب الرمال بجسارة، يتطاير منها دخان يوشوش بتصورات مشبوحة عن الواقعة، انتابني هلع غريبٌ، لم يُخرجني من نَزْفِ خواطري سوى صوت سمير وهو يرتفع في الفراغ:

- نحن ندفع ثمن شهوات الإنسان، الرغبة في امتلاك قدر الآخر، ولو بتدمير الكون، قامت القيامة يومها، تزلزلت الأرض، عاش السكان الفاجعة، على بعد مئات الكيلومترات... غبار، ورماد، وسخام، وحصى، ومزق نايلون، وعيدان... أشواك... خرق بالية... نفايات...وكل ما تنأى به الطبيعة عن الصعود من سافل القيعان، تصاعد في الجو...انطفأت الأضواء، وحلَّت الظلمةُ على

الأرض، لولا الحرائق التي تأكل كبدها بفظاظة... التهم المفاعل حظي، سبقتني إليه بأسبوع واحد، كنت في موسكو بصدد إمضاء عقد عمل، أغادر بعده أوكرانيا مع عائلتي.

استمع إليه مختار من دون أن يلتفت إليه، تركه حتى توقف عن الكلام وعرض عليه كأسه:

- تُقاسمني؟

- إن سمحت، قال سمير ومدّ يده إلى الشاي.

قال مختار، بشجن:

- هذه أهون كأس يمكن أن نتقاسمها! رقان، تشرنوبيل... لا فرق، تختلف فحسب الأماكن والتسميات، قد يكون ما لحقكم من تشرنوبيل لحقنا، وقد يكون لعاب اليرابيع القميء لحقكم أنتم أيضا، اللعنة لا تعترف بالحدود الجغرافية والزمنية، هي طليقة، تتصيد ضحاياها بكل حرية، ولا تُعجزها الوسيلة، الريح، المطر...التراب.. وأمشاجنا.

درج سمير من علبته سيجارة وأعطاها له، ولفّ ثانية ودسّها في فمه، أشعلها من طرف المحراك المتوقد، وارتشف جرعة من الشاي، وقال:

- فقدت عائلتك أنت الآخر؟

– العائلة التي لن أحظى بها، رد مختار بنبرة فيها انكسار.

شعر بأن حزنه خاص، يصعب الإفصاح عنه، نفث الدخان عاليا، وارتشف جرعة ثانية، وأعاد إليه الكأس، فدوّره مختار بين يديه، وقال:

– نضبت، نفَسُك قوي، هذا الشاي شديد المرارة، هو أوّل الغلي.

– حتى ولو كان آخره، سيظل مرا.

تكثّفت في عينيه الزرقاوين سحابةُ دموع، وارتجفت شفتاه بشكل ضارع، وتقلصت أصابع يديه بهيكل مخلب قط يريد أن ينقضَّ على ذاكرته، ويقتلع منها ما يمرّر حياته، ربّت طرف لحيته الخفيفة، التي غزاها الشيب، وعاد إلى مكانه وصمته، جانبي، أغلق كلٌ واحد منا باب أوجاره النفسية، وانغمس فيها بغوار، خفت وهج النار، وشعرت بالبرد، قلت لمختار:

– أظن أنه حان وقت العودة، ينتظرنا غدا يوم شاق.

– أظن ذلك.

ناديت على نورة وصبرية، وسبقتهما إلى السيارة، بدا عليهما الاستمتاع بالجلسة.

– عزفُهُنّ عجب! قالت نورة بانبهار.

أبديتا إعجابهن بنشاطات (الرقانيات)، وأحاديثهن، وشعرهن، وطبخهن...ولزمت أنا الصمت، كان بالي مشغولا

بكلام مختار عن عائلته، وصلني صوته مكروبا، تترعه أحزان الكون، شعرت بالشفقة عليه عندما طلبت مني نورة، بعدها بأشهر، أن أساعدها في تصنيف ملفات الضحايا، صدمتني المفاجأة، شاءت الأقدار أن تزحف قبيلة من (التوارق) من الحدود المالية إلى رقان، طلبا للماء والكلأ، واستقرت بالقرب منها، كان ذلك ثلاثة أشهر قبل تجربة اليربوع الأخضر، العملية النووية الرابعة، كان والدا مختار من ضمنهم، وأهدياه إلى الوجود مشوّه الجهاز الجنسي، وعندما كبر وأدرك ما فعلت به دسائس الإشعاعات، ترك قبيلته وعاد إلى رقان، وأصبح أهل قصر (تاعرابت) يظنونه، يغطس بين الفينة والأخرى، ليتفقد زوجته وأولاده، الذين رفضوا مرافقته، وتظن عشيرته أنه مستقر في رقان مع زوجته وأولاده، كان يعيش سرابين، ويتقفى الإحساس بالعائلة في رفقة السواح، ولو للحظات.

أنين حمودية!

عدنا إلى الفندق من دون طارق، لم يعد إلا بعد طلوع النهار، اصطدمنا به في البهو، ونحن في طريقنا إلى تناول فطور الصباح، انبعثت منه رائحة مقرّفة، يصعب التمييز إن كانت تنبعث من فمه أم من ملابسه، خليط من رائحة الكحول، والحريق، والتبغ...صعد إلى غرفته، واجتمعنا نحن في الحديقة الخارجية، نرتشف قهوتنا استعدادا للخروج.

كان وجه الصباح على غير وجه المساء، سماء مغبرة، وغيوم متفرقة، تتلاشى وهي تتجه شرقاً، أشبه بقافلة محاربين، والرياح الصفراء تزرع السأم بعويلها المقفر، ركبنا السيارة، وتبعنا عمر بشاحنته، جانبه طارق، راحت السيارة تجوب شوارعها، وأنا ألتفت على غير هدى، تكاد مخيلتي تخلو من أي شيء، إلا من صور الضحايا العالقة بذهني، أشفقت على (رقان)، المنطقة الهادئة التي تنام على ثقل تاريخي، وتسبح في ملكوت السحر، من أن تعبر عن لوحة منطفئة في حزن عارم ...لحسن الحظ أنها احتفظت، كذلك، بميزة الضيافة...والبريق! هي مدينة تنبض بالمميز، بتعاضد أهلها، واحتفائهم بالضيوف، لدرجة

أن يفتحوا بيوتهم للزوار في مناسبات مختلفة، ويكون لهم أن يختاروا أي بيت من البيوت، لأجل تناول العشاء والمبيت... ولها أيضا بريق المعادن النفيسة، لاسيما الماس الخام، المتفرق في أرجائها بشكل يستثير جنون الطامعين.

وقفت السيارة عند سوق للمنتوجات التقليدية، ولم تتوقف أفكاري، بقيت أشتري الأوصاف وأبيع، لحين أن نزل الجميع واضطررت بدوري إلى النزول، تركتهم ينتقلون بين المعروضات، من ألبسة، وأوان، وزرابي...ومنحوتات...ولوحات...واتّجهتُ مع صبرية إلى بائع الشاي، الذي زكّاه لنا مختار، قال إنّه في العادة «قيّام»، وهو شخص يتم اختياره، من باب التشريف، ليقوم بتحضير الشّاي في جلسات مميزة، ويتحلى بصفات معينة، من بينها بلاغة الحديث، وحسن إلقاء الشعر، وخفة الروح، وحسن المظهر، وطيب الأصل، وتم اختياره في تلك المرة ليقدّم الشاي في مدخل السوق الموسمية، رحّب بنا بحرارة، وسألنا:

- كم؟
- كأسان، قلت له.
- إذن ستة، سأذيقكم التّاي على أصوله.
- شكرا، سبق وأن أخذنا الواجب، هاتنا الكأس الثالث مباشرة.
- لا يجوز، سأقدّمه لك حسب الأصول، ولك أن تختاري أي كأس يترعك.

يتم تقديم الشاي عندهم في بعض المناسبات على ثلاث مراحل، يكون الأول شديد المرارة، ويُقدّم عادة للرجال، والثاني حلوا ومكررا للمرة الثالثة، ويقدم للنّساء، والثالث خفيفا، يمكن أن يتناوله الأطفال، وقد درج هذا القيام على تقديمه على مراحل، ترميزا لمراحل من الحياة في الصحراء، وترسيخا لثقافة الضيافة عند أهلها، حاولت أن أختصر الطريق على معدتي، ومزاجي، بالاكتفاء بالكأس الثالث، لكن إلحاحه، وحسن حديثه عن رمزية تلك الجرعات، جعلني أحترم تسلسل الكؤوس، خاصة وأنه وضع أمامي على الطاولة، وهي جذع نخلة مقطوع، صحنا من (القُرْباعي)، وهو تمر جاف له نكهة المكسرات المعسلة.

ارتشفت كاسي الأولى على مهل، بينما لم تطق صبرية طعمه الحاد، تناولت منه القدر الذي يكفي لتليين حنجرتها الجافة، وعادت إلى السيارة، تحتمي من أشعة الشمس التي كانت تكاد تصهر الرؤوس، وتذيب الجلود ، تحسست بشرتي، كانت تحتاج لأكثر من مرطب لتستعيد نظارتها، ثم ركزت على بشرتها التي تغيرت خلال ثلاثة أيام فقط من وصولنا، ذهبت الحرارة، والرمال المتحركة، ولفح الريح السموم... بشيء من بياضها، وفرضت عليها حمرة قانية، زادت من بروز عينيها الملونين بشكل أصبح يبديهما كأوراق الجريد، هممت بأن أحمل كأسي وأنضم إليها ثم تراجعت، لمحت طارق يعود إلى السيارة مسرعا، محملا ببعض الهدايا، وفضلت أن أترك له فرصة الحديث التي كان يتصيّدُها، وقف عند مكان جلوسها، وسلمها من النافذة صحنا من الفخار، نُقشت عليه صورة الواحة، وقال لها:

- اشتريت واحدا لك وآخر لربيعة، ستندمان إن عدتما من هنا من دون تذكار.

هزت رأسها ودمدمت بالشكر ثم صمتت، فعاد يقول:

- الحر شديد، والهواء ثقيل يكاد يقطع الأنفاس؟ الأمطار نادرا ما تسقط هنا، السماء دائمة الصحو! أتمنى أن أرى فيها سحبا، ورعودا...ووابلا من المطر... في الجهة الأخرى من الصحراء كثيرا ما تُمطر...إنه إحساس رائع، لا يُضاهى!

ابتسمت بمرارة وقالت:

- قد تحذفنا السحب بالخطر المدسوس في الجو، الطبيعة هنا جرح يصعب أن يندمل!

هز رأسه وتراجع بضعة أمتار، أدرك أن مثل تلك الملاحظة لا تشجع على فتح حديث ينبض بالحياة، لوّح بيده لمختار الذي خرج لتوه من الرواق، فأدركتُ أنه وقت العودة إلى السيارة، كنت بالكاد انتهيت من تذوق الكأس الثانية، تركتها على الطاولة، واستعجلت (القيّام) بالكأس الثالثة، وأخذته في يدي إلى السيارة، وقبل أن أصل إليها ببضعة خطوات اقترب شخص ملثم، لا يظهر من وجهه غير العينين، من طارق وسلم له ورقة نقدية من فئة مائتين دينار 200 دج، ففتح طارق محفظة نقوده وسلم له بدوره ورقة من نفس الفئة، كنت بمحاذاته تماما، واستطعت أن ألمح وجود كتابة عليها، لم أفهم ما يجري، ولم أهتم، لكن طارق وضح لي طارق، من دون أن أسأله:

- هذا المخادع باعني حزاما، وأرجع لي ورقة مضروبة، وعندما هددته بأن أشكوه للسلطات، لحق بي وصحّح الوضع.
- هذه الورقة أيضا تبدو مزورة، لمحت عليها خربشة، أخبر مختار، سيعرف كيف يتعامل معه، قلت له ناصحة.

انتحى جانبا، وأعاد النظر إلى تلك الورقة المالية، ووضعها في جيبه، وراح يرسم على الرمل، بعود التقطه، أشكالا وخطوطا، فاقترب منه مختار وقال له ممازحا:

- ستذْروها الرياح!

استدار إليه طارق يستهجن حركته المباغتة، فأردف:

- لو جبت معي السوق لكان أفضل لك من إفساد على تلك المخلوقة لحظات اختلائها بنفسها، ثم ابتسم بتماكر، وقال: أعطتك البطاقة الحمراء! أراهن على أنك حزين ومحبَط، جعلتكَ تُجرجر أدوات التمني، بلا جدوى!

لزم للصمت وصعد إلى السيارة، ولم يتطلّع مختار، بدوره، إلى ردّه، انشغل بتتبع حركة سيارات الدفع الرباعي، التي لفتت انتباهه من بعيد، همس لعمر بأن يبلغ عنها الشيخ الحمّودي، وانطلق بنا إلى الفندق، لينظر أمر إبلاغ أعيان القصور المجاورة، ورجال الأمن، فكثيرا ما تصبح المنطقة مسرحا لعمليات

مسلحة، لأعوان الأمن مع جماعات التهريب، التي تحاول نهب الثروات، وتهريب المخدرات، والسجائر، والبنزين، عبر الحدود، وأحيانا تحدث اشتباكات مع شباب المنطقة، عندما يحاول المهربون استعمال أراضيهم عنوة.

***

كانت زيارتنا للشيخ الحَمُّودي من ضرورات تلك الرحلة، فهو من أعيان المنطقة، وبعد كبير قريته، يحتكم إليه الناس في أغلب أمور حياتهم، فيبت في الخصومات، ويتولى عقد الزيجات، ويجمع الناس لأجل مدّ مجاري الفقارة إلى أرضه، ويمثلهم في مجلس أعيان القصر الذي ينتمون إليه... كما إنه كان شاهد عيان على الجريمة، كان طفلا في الثالثة عشر من عمره عندما حدث الانفجار، وقطع أحد أضلع السقف ساقه، استفاق بالمستشفى، وحيدا، بلا أب، ولا أم، ولا إخوة، ولا عائلة... ولا سند، فتكفّله رجل من قصر (تاعربت)، وزوّجه في الرابعة عشر من عمره، واستقرّ هو ونسله بقرب الواحة.

يبدو أنه كان يترقّب مجيئنا، استقبلنا في مدخل القرية بعراجين التّمر وقِرب اللّبن، ورافقنا إلى المضافة، رحب بنا وعرّفنا ببعض خصوصيات المنطقة، ثم راح ينقلنا من حديث إلى آخر، بسهولة من يضغط على زر التشغيل، ورحت أتقفّى تفاصيل حركاته، وتعابير وجهه...وكل كلمة يتفوه بها... ولم يتطابق شخصه مع صورة خيالي، توقّعتُ أن يكون قرويا بسيطا، طاعنا في السن، يلتف مع آلامه في عباءته، فإذا به قويّ

البنية، يبدو في العقد الخامس من عمره، وهو في منتصف عقده السابع، يخلو وجهه من عبث الزمن، عيناه تبرقان بالحماس، وخطواته مفعمة بحيوية الشباب، وروحه مرحة، بشكل لا ينفي عنه الهيبة التي يحظى بها بين أهله.

فاجأني بشخصيته، وبعناوين الكتب، والمجلات التي تراصت على رفوف مَكتبته، لم أستغرب أن تضمّ مجموعات نادرة من نسخ تفسير القرآن، والمخطوطات اللغوية القديمة، وطب الأعشاب، والرُّقية... وحتى كتب الشعر والأدب، بحكم تاريخ المنطقة وثقافتها، لكنّ مواضيع كالكوارث الطبيعية، والطب النووي، وقواميس الطب التشريحي الحديث، والمجلات المتخصصة في الأبحاث المتقدمة...لم تبد متلائمة مع طبيعة تلك القرية البسيطة، التي تتكوم فيها بيوت الحجارة والطوب، بشكل يُبديها كمجمع أثري، مُنعزل تماما عمّا يجري في شمال البلاد، فما بالك بما يجري في الجزء الشمالي من الكرة الأرضية، فهي تندس بين واحتين، على بعد عشرات الكيلومترات من (رقان)، وينتسب معظم أهلها إلى قصر (تاعرابت)، أكثر قصور المنطقة تضررا من الانفجار.

اتّضح لي من أحاديثه أنه شخص مثقف، وولوع بالقراءة، ووددت لو حدثنا عن ذلك الانفجار، لم يجرؤ أحدنا على أن يفاتحه في الموضوع خشية أن يعتبره تعدٍّ على حدود ضيافته، سبق وأن نبهنا مختار لأهمية بعض تفاصيل الضيافة، وحذّرنا من مزاجه المتقلب، وخشونة ردّ فعله عندما يتعرض

للاستفزاز، لكن صبرية لم تتصرّف معه بحرص، كانت تتحدث إليه بعفوية، وتجول ببصرها بين عناوين الكتب، ثم نهضت فجأة وراحت تتصفح مجموعة من الجرائد القديمة، بينما استمررنا نحن نختلق الأحا ديث معه وكأننا نغطي على تصرفها، لكنه بدا منشغلا عنا بما تفعله هي، حمل نفسه إليها، في آخر القاعة، وفتح صندوقا خشبيا مغطى ببطانة ماعز، وأخرج مجموعة من الجرائد القديمة، وقال:

- اقتصرت ردود الفعل الدولية آنذاك على بعض الدول العربية، التي دعمت موقف الحكومة الجزائرية المؤقتة، واستنكرت تلك التجارب، وشجبتها، كالمغرب، والعراق، ومصر، وليبيا، وأبدت بعض الدول اعتراضها، لاعتبارات مختلفة، منها تشيكوسلوفاكيا وبلغاريا، والهند، وإثيوبيا، وكندا، والاتحاد السوفياتي، وعلى العكس، أيّد أعضاء في الحلف الأطلسي تلك التفجيرات، وصمتت عنها دولٌ تمسّحت بالحياد، لتُحافظ على مصالحها، تكرّرت مشاهد المسرح الدولي الحالي ذاتها، في عرضه لحقوق المستضعفين، تختلف فقط تفاصيل الديكور، وشكل الخشبة.

وضعت صبرية تلك الجرائد على الرف، وكأنها تعزف عن قراءتها، وقالت تعبّر عن استياءها:

- عانى سكان المنطقة، المساكين، في انعزال!

هزّ الحَمُّودي رأسه مساندا وقال:

-دفعنا ثمن استمرار حكم ديغول، والجمهورية الخامسة التي أعلن عنها، تمت التفجيرات بارتجال، من دون مراعاة الاحتياطات اللازمة، مثلما حدث في عملية اليربوع الأخضر، التي تمت يوم 25 أفريل 1961، أمر بتنفيذها مباشرة إثر حدوث العصيان والتمرد العسكري الذي أعلنه أربعة من كبار جنرالات الجيش الفرنسي آنذاك من مدينة الجزائر، بهدف إقامة حكومة فرنسية انفصالية يدعمها المستوطنون، غلّب الهدف السياسي على الهدف الإنساني، وقدّم منطقة بأسرها كبش فداء...بها، بسكانها، بحيواناتها...وطبيعتها...وبيئتها... ومصيرها لآلاف السنين.

- اللعنة على سياسة تنتعش بدماء الأبرياء! انبعث صوت نورة متحسرا، من الناحية الأخرى من القاعة، وتلاه صوت الحمودي، جهوريًّا، وكأنه يخطب في محفل دولي:
- السلاح النووي هو الوجه الأكثر قذارة للاستعباد، يُخضع الأغلبية من البشر لسُلطة الأقلية، بالتّرهيب، وحكايات الفيتو، في مجلس الأمن، هي أكبر دليل على اعتبار دوّل عينها حرة، ومؤهلة لاتخاذ قراراتها المصيرية، وأخرى ناقصة الأهلية.

شعرت بأن كلامه يشملني، فقبل لحظات فقط كنت أستغرب أن تكون له مثل تلك المكتبة، وكأنني أستكثرها على

غير رفوف الشمال، حيث تبتسم الطبيعة بدلال، وترتفع أبنية الإسفلت، وأدخنة المصانع، وطوابق المدارس والجامعات، التي تستورد مناهجها من وراء البحار، لاسيما من مناطق الفيتو، كدتُ أبتلع لساني من الحرج، تظاهرتُ بالتركيز على ما بين يديه، لأتجنب قوة نظراته، وهو يساعد صبرية في فرز تلك المقالات، ولم يأت على ذكر ذكرياته عن الانفجار، خذل فضولنا، اكتفى بسرد معلومات عامة، تحدّث بانفعال، ثم هدأت ملامحه، ولاح طيف ابتسامة على محياه، وباغت صبرية باستنتاجه :

- في نظراتك عمق مهيب، تبدو ردود أفعالك بسيطة، لكنّك لستِ هينة، تتحكمين بانفعالاتك بشكل ملفت، وهذا دليل قوة، أظنك تعرفين متى تثبين وثبة قنّاص، فيك ملامح زناتية أصيلة، الزناتية بمائة فارس.

همس طارق لمختار:

- لم تُخبرني أن شيخكم عرّاف! القبائل الزّناتية من أهم القبائل التي استوطنت شمال أفريقيا منذ القديم، ذكرهم المؤرخ ابن خلدون بأنهم أهل تمرد، وعدم خضوع للسلطة المركزية في غالب الأحيان، وتباينت حياتهم بين الاستقرار والترحال، هم حسبه بربر، انتسبوا إلى العرب، وتوغلوا في الصحراء لأسباب أمنية، تتعلق بصراعهم مع قبائل أخرى، وإذا عُرِف السبب بطُلَ العجب! هذه المخلوقة لا تُشجّعها سوابقها الجينية على حوار الاستقرار!

انفلتت شفتا مختار بضحكة تشهد على إعجابه بتشبيهاته الطريفة وهمس له:

– أنت من قبيلة الأبالسة!

وهمستُ له، بدوري، أستفزّ مزاحه:

– مائة فارس! هل وعيت؟

ابتسم بدهاء، وقال:

– داهنتهُ بتلك الكلمات التي حفظتها عن الجيولوجيا، تسطو على اختصاص أهل الخبرة، وتتبطّرُ على حديثهم.

هززت رأسي في حركة تُشيد بتطويعه الكلمات، فهي لا تخونه في أي موقف، فأشار لي بأن أصمت، خشي أن تسمعنا، لم يكن يفصله عنها سوى مقعد، كان يجهل أنها سمعته، مثلما سمعناه جميعا، ولم تعره اهتمامها، مثلما تجاوزت حديث الحمّودي عنها، ولم تعلّق، أجّلت ردّها لوقت لاحق، همست لي ونحن حول مائدة الغداء:

– لم يُخطئ إذ قال عنّي زناتية، ولن يخطئ إن نسبني لأي نفس من أنفاس هذه الصحراء الشاسعة، المليئة بالحكايات والأسرار، أنا أعيش تفاصيل مأساتها، منذ سنوات، ولا أستبعد أن أكون من حمّودية، أو عين أكّر، أو هيروشيما، أو نافازاكي، أو تشيرنوبيل...أو فوكوشيما... من أي منطقة نفثَ فيها الشيطان أنفاسه الأكثر إيلاما وإيذاء.

أمَلنا بعدها أن يحكي لنا عن (حمودية) لكنه راح ينشد قصيدة بدوية طويلة، من آخر ما جادت به قريحته، تلاعبت نبرته المتباطئة بأعصابنا، وتبادلنا نظرات تطفح بالامتعاض، ولحسن حظنا أن تدخلت نورة، مجردة أن أنهى عجز البيت الثاني، وحاولت أن تستدرجه إلى الحديث الذي كان يشغل بالنا جميعا، أشارت إلى صبرية وقالت :

- هذه المخلوقة لها صبر (حمّودية)! تدفن نفسها منذ سنوات في قبو مع اليرابيع، بهدف تطوير الطب النووي.

هزّ رأسه وأطلق تنهيدة طويلة :

- صبر (حمودية) من صبر أيوب! انفتحت عليها في ذلك اليوم أبواب جهنم، اهتزت الأرض وتفتقت السماء بالشهب والصفائح الملتهبة...والغازات...كانت قريتنا بعيدة بكيلومترات عن (حمودية)، لكنها أخذت قسطها من العذاب، تزلزلت الأرض تحت أقدامنا، وتهاوت علينا الشهب، ووقعت أنا تحت رحمة وتد كبير، سحق رجلي...رأيت أمي وأبي وجدتي... وجميع عائلتي، يصرخون، وحيث يركضون يقعون في قلب العذاب، كانت ألسنة اللهب تُسابق أعتى الزوابع، وتتلوّى في الجو كالأفاعي، والصهد يستخرج الأمخاخ من الجماجم، والشحوم تسيح في كل مكان كالدّهان... كانت محرقة جماعية مهولة! فرقعت فيها الأجساد فرقعة الذرى

على النار، واختلطت فيها استغاثات البشر بالعواء، والنباح، والنهيق ...والصهيل...وكان لليرابيع نصيبها من العذاب، والتنكيل، ولعلّ أوّل ما ستشكو منه، لو قُدّر لها أن تتحدث لغتنا يوما، هو ظلم جلادها الذي فاق التصورات، نقش اسم الضحية على السكين الذي ذبحها به!

صمت الحمودي، ولم يقو على متابعة الحديث، غرغرت عيناه بالدموع، هزّتني ملامحه التي ارتسمت عليها مخلفات زلزال، وقلت في نفسي: « الحياة، لولانا، رائقة، نحن من نملؤها غمّا وهمّا، درجنا في الأرض مخرّبين ومعمّرين، نغزل ونُمزّق، لابد لنا من الفوضى لنعرف النظام، ومن الحقد لنعرف الحب، ومن الحرب لنحسّ براحة السلام، ...لابد لنا من الشقاء، التُّفاحة التي أنزلتنا إلى السُّفل لا تزال تُراودنا عن راحتنا.»

***

همس الحَمُّودي لمختار بأنه يضع تحت تصرفنا بمرافقين يسهلون لنا مهمتنا، فقبّل مختار يده وجبينه، ودعا له بطول العمر، ثم سلمنا عليه نحن وانصرفنا، ودّعنا بابتسامة واثقة، تعبّر عن دعمه، وتشجيعاته لنا، في مُضيّنا إلى (حمودية)، فلم يعد يفصلنا عنها سوى طلوع شمس الغد، شعرنا بالقلق والارتباك، تراءت لنا صورة جبانة كبيرة حائرة في رصّ قبورها، وتعاظم فينا هذا الشعور عندما وصلنا إلى سياج تتوسّطه لافتة كُتب عليه

خطر، تسابقت كاميراتنا على أخذ الصور بينما انضمت صبرية إلى الشخصين الذين لحقا بنا في سيارة مستقلة، وأشرفت على عملية إطلاق اليرابيع في الخلاء المشع، بقيت اليرابيع جانبها، قبل أن تذهب إلى حال سبيلها، وكأنها كانت تُحسُّ بما يحيط بها، وتأبى الحرية حيث يسكن الخطر!

شعرت بالرهبة، وخزني الهواء بأنين وآهات كائنات معذبة، أرواحها عالقة بين السّماء والأرض، خلتها للحظة أرواح الجن الذين ذكرتهم تلك الأسطورة، ثم انتبهت للعذاب الذي يدّخره المكان للإنس، وتناسيتها، كان البقاء في المكان لأكثر من ربع ساعة يشكل خطرا علينا، الأشعة النووية لا تُرى، وليس لها طعم أو رائحة، لكنها تدخل إلى الجسم عبر التنفس أو البشرة، وإذا تعرض الإنسان إلى كميات كبيرة منها، قد يموت خلال ساعات أو أيام قليلة، ويصعب تقديم مساعدة طبية له، أسرعنا بالعودة إلى السيارة، تغمرنا مرارة تمسح حلاوة اللحظات التي عشناها، بدأ يومنا بزيارة مدينة القبور الضائعة وانتهى باستنزاف الجرح، دعانا مدير المركز الثقافي لحضور عرض سينمائي عن الواقعة، تغلغل صوت المعلق في أعماقنا بنبرة مُزلزلة:

«انتهكت عملية اليربوع الأزرق، التجربة النووية الأولى، حرمة الصحراء بفظاعة، بما يعادل أربع مرات قنبلة هيروشيما، وبلغ عدد الضحايا حينها اثنين وأربعين ألف شخصا من السكان، يُضاف إليهم المحكوم عليهم بالسجن والجنود، أخرجت فرنسا

سر مخابرها المندسة في قلب الجبال، على الساعة السابعة والربع من ذلك اليوم، وتمّ عصب عيون الفرنسيين والجزائريين العاملين بالمخبر، وتمييزهم بأرقام وشارات، ورغم ذلك كادت تنخلع من قوة الشعاع الصادر، وتبعتها عمليات أخرى لا تقل فظاعة عنها، على سطح الأرض، وفي باطنها، استعملت فيها مختلف مظاهر الحياة كفئران تجارب: الرجال، والنساء، والأطفال، والشيوخ، والحيوانات، والمياه الجوفية...والهواء، والرمال...

يتحدث الخبراء والمؤرخون عن حوالي سبعة وخمسين تفجيرا نوويا، ما بين تاريخي 13 فيفري 1960م و16 نوفمبر 1966م، بلغ مقدارها ستمائة 600 كيلو طن من (التي ان تي)، ما يفوق قنبلة هيروشيما بأربعين مرة، وكانت المسافة الصفرية بين تفجير وآخر أقل من مائة وخمسين كيلومتر، وهو ما جعل الجو مشبّعا بالإشعاع النووي، وكان نصيب منطقة رقان منها أربع عمليات، أطلق عليها، على التوالي، اسم اليربوع الأبيض، واليربوع الأحمر، واليربوع الأزرق، واليربوع الأخضر... شكلت ألوان العلم الفرنسي، وأضيف إليها اللون الأخضر، الذي يشهد على جنون منفذيها، الذين رمزوا للدمار بلون الحياة... أصبحت منطقة بكاملها مجمعا للإشعاعات النووية، لكن قصر الإليزيه تحايل على الضمير الإنساني، وروّج لكذبة التجربة النظيفة، مع أن المأساة ظاهرة، لا يمكن مداراتها، ومستمرة...»

أعيدت إضاءة القاعة، وانفجرت التعليقات، وبقي داخلي في بؤرة معتمة، تحت سيطرة أصوات بعيدة، تنبعث من حكاية قديمة، تنتقم فيها ساحرة شريرة، من أهل مدينة مسالمين، عجزت عن امتلاك عقولهم بالشعوذة والخزعبلات، فحوّلتهم مسوخا، لم يجد إحساسي غير هذا المبرر ليستوعب تلك الفظائع المصورة، شعرت بضيق شديد في صدري، خرجت إلى الساحة أنشد الهواء... فوجدت صبرية تتحدث بالهاتف، لم تحضر خاتمة الفيلم التي انتهت بسؤال مخيف: "متى يُعتق الإنسان الإنسان؟" ورغم ذلك ارتسمت معانيها على ملامحها، أطلقت فجأة رُكبتيها على الأرض، وتوالت شهقاتها مُروّعة، انهمرت دموعها حتى بلّلت البلاط، أحطنا بها جميعا، نظرت إلينا نظرات تطمسها الدموع، وقالت بنبرة مبحوحة، مرتجفة:

– غادرنا الملاك، كتمت اللعنة أنفاس أمل.

إنقشع الغلاف !

«سأكون في البيت ظهرا.» بعثتُ بهذه الرسالة المقتضبة لزوجي، عزف لساني عن الكلام، على قدر ما اشتقتُ لبيتي وابنتي، على قدر ما ارتهبتُ من العودة، كانت أمل من سنها، وعدتها أكثر من مرة بأن أستضيفها لتلعب معها، ولم أقدر، لم تسمح صحتها بإخراجها من المستشفى، غادرتْ وأنا بعيدة، لم أحظ بفرصة توديعها، تركت لي حرقة عدم تحقيق رغبتها، مع الكثير من الألم، ذلك المنفى الكبير، الذي يزُجُّ بعضنا بعضا إليه بسبب، ومن دونه! ولا يعرف ملامحه الحقيقية إلا من يسكنه، أصبحنا نتبادله كالهدايا، ونتنافس على تطويره.

شعرت بأنني على وشك أن أنفجر، وأتشظّى، لحسن الحظ أن كان معي قلمي، ذكرّني بكلمات المقال الذي بدأته ذات يوم في غرفتها بالمستشفى (أي قلم يمكن أن يرسم آلامي؟ وأي مقال يمكن أن يعزي في طفولتي؟ خسارة الطفولة هي أفظع خسائر الإنسان!) وعجزت عن إتمامه، اكتفيت بهذه الكلمات لتأبينها، مع تعزية لخضرة، فكرت في أن أترك لها على صفحة الجريدة ما كان يصعب أن أقوله لها في حضورها، كانت منهارة، كانت

أمل آخر شعرة تربطها بالحياة، كنت أحس وجعها، وأتصوّر انفعالاتها، وقلت بصوت مسموع : « إلى أين يقودنا شيطان الطموح؟» ثم كتبت هذه الجملة قبل أن تتوه مني، كانت نصيبي من رحلة خمسة أيام، عاد منها كل واحد منا يتأبّطُ منحوت إحساسه، لم يعد هناك داع لأن نتطلع إلى ما تختزنه محفظة صبرية من صور، ووثائق، بعد أن وقفنا عند عبارة خطر التي تتصدّر مدخل الحظيرة المحرّمة، وقابلنا العديد من ضحايا الإشعاعات.

***

نزلت صبرية إلى المخبر، واطمأنت على أن اليرابيع التي عادت بها هي ذاتها التي أطلقتها في المرة السابقة، ثم صعدت إلى مكتبها، وجدت طابتي في انتظارها، زفّ إليها خبر قبول مشروعها من طرف اللجنة العلمية التي عرضه عليها في الخارج، وأنه لم يبق سوى إحالته على لجنة التنفيذ لأجل تحديد التكاليف وآليات التنفيذ، طلب منها أن تحضّر له ملفا كاملا، بأدق تفاصيل التفاعلات والروابط الكيميائية، لأجل أن يرتب لقاءها بأصحاب المخبر، وقال: « سينوبني عماد أثناء غيابي، أُطلبي منه ما تحتاجين إليه، تفرّغي فحسب لهذه المهمة، دعي الأمور الإدارية لوسيلة، اتفقنا؟» هزّت رأسها بالإيجاب، شعرت بالاعتزاز، رافقتها زقزقة الأحلام إلى مكتبها، وأنستها أن تستفسر عن سبب غيابه الطويل، كما أنستها أن تعرض عليه بعض الأمور الإدارية،

توجهت إلى مكتب إدارة الأبحاث وطلبت سجل مُتابعة الأبحاث، لأجل أن تعد له ملخصا عنه، راجعته عنوانا عنوانا، ولم تجد بحثها، على الرغم من أنها سجلته منذ سنوات، سألت عنه رئيس القسم، فأشار إلى مربع من مربعات الجدول، وقال:

– هذا هو، إنه من أوائل الأبحاث التي سجلناها بالمخبر الجديد.

عاودت القراءة بنظرات حائرة: عملية الفئران البيض... كلمات افتتاحية... تطوير عمليات الكشف عن الإصابات بالإشعاعات النووية عن طريق السكانير... قيد الدراسة من طرف لجنة الأبحاث...

– سجلت البحث بعنوان « التطهير من الإشعاعات النووية - مادة اليربوع-»! سألته بمزيد من القلق.

كتب العنوان الذي ذكرته أكثر من مرة ولم يظهر على شاشة الكمبيوتر، طلب منها أن تتأكّد من الكلمات المفتاحية، جربت أكثر من احتمال، من دون نتيجة، فكرت في أن تتقفى أثره من خلال الفواتير.

– أين الفواتير التي تخص عمليات جلب اليرابيع؟

– أي يرابيع؟ لم نجلب سوى الفئران البيض، هذا هو ملف المعاملة بالكامل، قال رئيس القسم بثقة، ووضع بين يديها أوراقا، وفواتير، وعقود، وإرساليات...لم تعثر بينها

على أثر لتجاربها، دارت الأسئلة في رأسها كالمطارق: أين هي تسجيلات سنوات؟ وماذا عن حديثه عن الخارج، واللجنة التنفيذية...وفريق العمل؟ أسرعت إلى مكتبها جزِعة، تصفحّت السِّجلّات بتركيز، فوجدت ما وجدته بسجلات إدارة الأبحاث، ملخصات عامة عن محاولات تطوير الكشف الطبي بالأشعة.

- أين ذهبت التسجيلات المتعلقة بمشروع اليرابيع؟ سألت وسيلة بانزعاج.

- في سجل البريد؟

- وأين اختفت تلك التفاصيل التي كنت أحرص على أن تسجل مع كل إرسال؟

أجابت بنفس متسارع، ونبرة تجمع بين الحسرة، والتنبيه:

- تسألين عنها الدُّون طابتي، أنصحك بأن تفعلي قبل أن يتوه في العسل، ويعود بلا مُخ.

نظرت إليها بارتباك:

- هل هذا وقت ألغازِك!؟

- لا ألغاز، ولا نوادر، الأمر معلن، الدكتور سيتزوج ناريمان الأسبوع القادم، هل يُعقل أن لا يوجه لك الدعوة يا كاهنة معبده!؟ تلك الجنية عرفت كيف تستحوذ عليه، كانت تقهقه وتنكت، وعندما جاء وقت الجد أرسلت بطاقات الدعوى

مع السائق، لم تترك لنا فرصة رؤية أثر الواقعة على وجهها! خبرة! خبرة كبيرة!

جمدت نظراتها، وتسارعت دقات قلبها، انطلى وجهها بعلامات الذهول، لم تفهم كيف ومتى حدث تقاربهما، ولا سبب مداراتهما الأمر، عادت إليها صور ناريمان وهي تُرغّبها فيه، وتحثها على التقرّب منه، وتذكر لها وقع محاسنها في نفسه! وكيف كان هو يعاملها وكأنها كنز يخشى ضياعه! هل كانت تجسُّ نبضها؟ وهل كان هو على علم بذلك وتواطأ على سذاجتها!؟ شعرت بالاستغفال، سنوات وهي تنحت تمثاله، طوبة طوبة، مأخوذة بطبعه الهادئ، ومروءته، واهتمامه المثالي بعمله... وأخلاقه، لدرجة أن أصبح المنفى الاختياري لأحاسيسها، أو لقناعاتها... حدث تداخل، يصعب فك تشعباته في داخلها، وفجأة يتهاوى!

اتجهت إلى مكتبه بأفكار متضاربة، كان لابد من أن يوضح لها ما يحدث، في الأقل عما يمكنها الإفصاح عنه، تسارعت دقات قلبها، وارتمت على مقعد وسيلة، التي كانت لا تزال تنتقل بين المكاتب، لتنشر الخبر، وصل إليها حديثه عنها واضحا.

- هل كان من الضروري أن تُنكّل ناريمان بأعصابها، فتدعو كل من في المخبر إلا هي!

- ناريمان حرة، تدعو لعرسها من تشاء، وأنا لست مُلزما بكشف حساب.

- لا تليق بك مسحة البراءة المزيفة التي تطلي وجهك! كل شيء كان على المكشوف، عملت على لفت انتباهها بكل الوسائل، ثم انسحبت بفظاظة.

- لم أعدها بشيء، لتشعر بالخذلان، هي في حد ذاتها لا تعرف ما تريد، أحسها أحيانا تائهة، وغير متزنة، تُسلّم داخلها للأبحاث وكأنها تنتقم من ذاتها! وكأن داخلها مثلث بيرمودا، يشطف منها حرارة الحياة! نظراتها منطفئة، كسيرة...ورغباتها مقبورة... حتى خطواتها مترددة، تزيد من حدة عرجها.

- طبعها خجول! هذا كل شيء، ولا أظن شخصا مثلك يهتم بتفاصيل الشكل.

- بلى، تعنيني، كأي رجل يشتهي أن تخطو زوجته خطوات كاملة الأنوثة، وتلبس كعبا عاليا...

قاطعه محتجا:

- ربما لا يمكنها أن تلبس الكعب العالي لتُرضي تطلعات ذكر، لكنها قادرة على رفع تطلعات رجل ذكي، رفيع الفكر، إنها عالمة! مخ! أنت أكثر الناس دراية بمعنى هذا!

- لا يعنيني وزن المخ، أحتاج فحسب لكفة زوجة وأم الأولاد.

- ناريمان هي أم الأولاد؟! تساءل عادل بنبرة مشككة.

- قد تبدو متمردة ومناكفة، لكنها في الواقع طيبة، وواثقة من نفسها، وناضجة، ومرحة... كل شيء فيها مشوّق... طريقة تعاملها، تعابيرها، حديثها...كل شيء بالنسبة لها ممكن وسهل، ليست تفلسف المشاعر، أما صبرية، فهي مُرهقة.

صمت لحظة ثم أطرد بنبرة مرتبكة، وبدا تائه النظرات، وكأنه يبحث عن مبرر لنفسه:

- لا أنكر أنها استحوذت على مشاعري لوقت، لكنها لم تعرف كيف تستبقيني، على الرغم من ذكائها، لا تحسن فرض حضورها، تتصرَف كطفلة مهزوزة، أنا أحتاج إلى سيدة حقيقية، ذكية ذكاء الأنثى، لا ذكاء العالمة، تعرف كيف تستمتع بالحياة، منحتها أكثر من فرصة ولم تثبت لي العكس.

قال عماد يقطع عليه سرد قائمة أعذار لم يعد منها طائل:

- على كل،إنه النصيب، مبارك يا صديقي، ظننتك ستظل عازبا إلى الأبد، ماذا عن ترتيبات العرس؟

لم تبق لتسمع المزيد، تركت الإجابة لأذني وسيلة التي استعادت وضعها على الكرسي، غادرت على صرير سكاكين تعبث بروحها، وتمزقها إربا، قبل أن تنزل الدموع التي كانت تتجمع في

عينيها، أحست ثقلاً فوق رأسها، يضغط قامتها لتغيب في القاع، لم تكن تصدق يوماً أن يكون على هذه الدرجة من القسوة، أي فكرة يحملها عنها حتى يرى نفسه فرصة بالنسبة لها؟ ساورتها الهواجس، وشعرت بالإهانة، بالخذلان...بالتفاهة...أحست أنها غريبة عن هذا العالم، لا تعرف شيئًا عنه، وتجهل كل شيء عن الناس، وضمائرهم، ومتطلباتهم...بدأت الأكذوبة تتعرّى شيئاً فشيئاً، الأبحاث، ثم كلامه... دهمها الإحساس بأنها في زمن خداع البصر، كل شيء سراب...شعرت بانقباض في صدرها، ترقرقت الدموع في عينيها ثم جمدت، لم تعرف كيف تنزلها، عانت ألماً كافراً، لا يرحم، لم يسمح لها حتى بالدموع، أوجعتها تلك المقارنات المفلسة من الود، بينها وبين ناريمان، ونزف كبرياؤها، قائلا: « من هو ليحسب نفسه فرصتها الضائعة؟!»

حديث يرابيع

اتّقدت جمرات الخراب، تفحّم شعورها بحلاوة السنوات التي قضتها في الحسابات، والمعادلات الكيميائية، والتفاعلات النووية، وأنابيب الاختبار...يقضم القلق أعصابها، والأرق صحتها، تأملت اليرابيع وهي تتقافز، وتندسُّ في التراب، وقالت لها بصوت مبحوح:

«في ذروة الحلم، حملت على كاهلي رسالة العودة الى تاريخ بعيد، ونسف التخوم الإقليمية التي تعزل إحساس الإنسان بالإنسان، واخترتكِ أنت أيتها المخلوقات الآتية من عمق التراب والتاريخ، لتحملي معي الرسالة، ربما لأنني أثق بصبرك، وربما لأنني أتعاطف مع قهرك، الذي جعلك اسما لسوط جلّادك، وربما بسبب قواسمنا المشتركة القوية، وأولها عبئ اللعنة، التي تُطاردك بأسطورة، تُحمّلك وزر غيرك، وتُطاردني بأبحاث، وضعها في طريقي عقلي المؤمن بالعدل.» تأملتها لبعض الوقت ثم هزت رأسها، بحركة معترضة، وعادت تحدثها بنبرة أقلّ تعاطفا معها:

لدينا قواسم مشتركة عدة، لكن وضعك، مقارنة بي، أفضل، أفضل بكثير! قدرك أن تعيشي في الصحاري الحارة لتنتعش حياتك، وقدري أن أعيش حيث يتصحّر الإنسان، تركضين هربا من قنّاصيك بسرعة قد تفوق الأربعة وعشرين كيلومتر في الساعة، حتى لا تكوني فريسة، وقدري أن أظل فريسة مهما ركضت، وبأي سرعة، أو اتّجاه، ركضت... الوقت يفترس من عمري، والألم يفترس من وجودي... مهما فعلت أظل ملهاة ظروف جعلتني باحثة.

أرأيتِ؟ كل شيء يجعلك في وضع أفضل! لا وجه للمقارنة، حتى حواسك، تتمتعين بحاسة سمع عالية، تجنبك الخطر، وأنا لدي أكثر من حاسة قد تدفعني نحو الخطر، صوت الآخرين، أوامرهم، توجهاتهم، وتعليقاتهم، وتدخلاتهم في حياتي... نفسي... ذاكرتي...فلولا أن استمعت لصوت ضميري لكانت حياتي ربما أفضل مع لطفي، ولولا أن استجبت لصوت أحلامي لكانت ربما علاقتي بالآخرين كذلك أفضل، ولربما ما كنت اليوم لأمشي هذه المشية التي لا تختلف كثيرا عن مشيتك، بل إن وثبتك أكثر ثقة وقوة! أنا وثبتي عرجاء على جميع المستويات، عرج في رجلي، وآخر في قراراتي، لا أدري إن كان يجب عليّ أن أستمع لنصائح طابتي وأقبل عرضه، أم أتّخذ منحى آخر، أنا في حالة دوخان! أخشى من أن أقف الوقفة الخطأ، أو أقفز القفزة الخطأ، الخطأ لمن كانت في وضعي غير مسموح به، قاتل، لا يغفره التاريخ، ولا النفس.

أغْبِطُك! بل أحسدك! أعجز أن أعاملك بغير لوثة الإنسان الأولى، الغيرة، فلفرط ما جربت أن أكون مثلك ولم أفلح... عشت مثلك لسنوات حياة ليلية، لكن في ظروف مختلفة، حياتك في الليل دبيب هادئ، وسكونك في النهار في جحرك فيه راحتك، وأنا حياة الليل تقودني إلى مخاوف انكشاف النهار، وأشعة الشمس تجلب لي عتمة الخوف من الآتي... ولك راحة السبات الشتوي، وأنا لا راحة لي حتى في السبات، سباتي هو طمر النفس للنفس، ألست في الواقع أنا من يستحق الشفقة؟ كنت قبل لحظات فحسب أفكر في إطلاق سراحك، وأُعتقك من شقاء التجارب، وتقلبات ضوء المخابر...انتهت صدفة لما تحظين به من مزايا، وغيّرت رأيي، اتقدت غيرتي منك...أنا الآن من يحتاج لمن يحررني من قيودي، أحتاج إليك...متى تظهر النتائج النهائية عليك، وأتحرر من قيود هذا المخبر؟ أريد أن أشفى منه، أريد أن أحيا حياة طبيعية، ولو تحوّلت يربوعا، بل أنا أحدثك اليوم بصفتي لاجئة...أنشد في عالمك راحتي.»

أمضت وقتا تتحدث إلى اليرابيع ثم غادرت، وكأن صحنا طائرا اقتلعها من مكانها وألقى بها خارجا، تركت باب مكتبها مفتوحا، واخترق جسدها زحام الشارع مثل نيزك يخترق الغلاف الجوي، اندفعت بغير وجهة أو هدف معين، يداها معقودتان خلف ظهرها، وقدماها لا يميزان ما يصطدم بهما، وعيناها غائرتان، تجولان في الآفاق، تارة، وتكنسان الدموع التي تلهث فيهما، تارة،

– لا يسوغ أن تتركيه مفتوحا! لحق بها بشير، وسلمها المفتاح.

تمتمت بالشكر، وواصلت طريقها، همَت بأن تعود إلى البيت، ولم يطاوعها مزاجها، أحست بأنها ستتعرض لجلطة لو عادت بكل تلك التعاسة التي كانت تملؤها، فكرت في مكان يمكن أن يوقف نزيف مخيلتها، اعتصرت ذاكرتها ولم تهتد إلى أحد، أفلستها الأبحاث من الأصدقاء والمعارف! تركت الخيار لرجليها، فوجدت نفسها مرة أخرى أمام منزل رفيقة، صعدت السلالم بخطوات عشوائية، وكأنها تتنقل في الفضاء، لم يعد يعنيها أن تموّه عن اختلال خطواتها بعد ما قاله طابتي عنها، كانت تظنه لم ينتبه لها أصلا، أو أنه ينظر إليها كما ينظر إلى ذات الجناحين، التي أوحى لها بكلماته، وتصرفاته، بأنها هي، وأنه الشمس التي تقبع فوق رأسها، وتنساب على إحساسها بالوجود.

مدت يدها إلى جفنها، قبل أن يكتمل فتح الباب، وتأكدت أن دمعاتها الجامدات لم يذبن، ثم ابتسمت ابتسامة ذابلة لحماة رفيقة، التي رحبت بها وأدخلتها إلى الصالون، لحظات وظهرت رفيقة تعتصب شعرها و(البينوار) الطويل يلفَ جسدها، وقالت بغبطة:

– جاءت ولية العهد!

– مبارك! متى؟

انتبهت لانبساط بطنها، أحست بالخجل الكريه، لم تسأل عنها طيلة تلك المدة، وعادت في الوقت الغلط.

- الصراحة، جئت على باب الله! قالت تبرر زيارتها.

- لا عليك! كتب الله لك أن تذوقي (الطّمَّينة)[1]، ردَت رفيقة بطيبتها المعهودة، وأشارت إليها بيدها، فتبعتها إلى الغرفة الأخرى، وأزاحت الشاش عن المهد.

- الصورة الأنثوية لعليلو! ركزي لاحقا على صورتك أثناء الوحم، لتحسين الانتاج! قالت صبرية ممازحة.

- أتمنى أن يكون حظّها أفضل من وجهها!

دغدغت صبرية رأسها بطرف سبابتها، وقالت:

- لماذا تعطينني انطباعًا، كلما تحدَّثت إليك، بأنني أتحدَث إلى جدتي!

- لأنني متعقلة! هاها...ها...

أخرجت من حقيبتها ورقة مالية، دستها في يد الصبية، التي لم يتجاوز عمرها أسبوعين، فاعترضت رفيقة بشدَة.

- لا تحشري أنفك بيني وبينها، أُنظري، أطبقت أصابعها عليها تمامًا، ستكون محاسبة أو سيدة أعمال!

- هاها...هاها..

عادتا إلى الصالون، وجدت صينية القهوة في انتظارها، وضعت أمامها حماة رفيقة صحن (طمينة) مزيَنة بالشامية والمكسَرات

1. نوع من الحلويات الجزائرية التقليدية التي تقدم خاصة في مناسبات ازدياد مولود والطهور.

المغرقة في الزبدة والعسل، أمسكت بملعقة وانقضّت عليها في منظر غريب! الفم يبلع! والعين تذرف! وكأنَ الشاي الساخن الذي ترتشفه من فمها يخرج شلالات ساخنة من عينيها!

- الزكام يلازمني منذ مدة، قالت تموه عن ألمها.

- عليك باستنشاق بخار أوراق الكاليتوس، تتغلّبين عليه، وتمنعين انتشار الوباء، نصحتها رفيقة.

سأفعل! ردت بصوت مبحوح ثم انتبهت لكونها لم تسأل عن اسم المولودة، واستدركت: ما اسم صاحبة الفَخالة الصغيرة؟

- احزري!

- سأحملها الساعة إلى المخبر وأحلّلها، هذه هي طريقتي في الاستنتاج.

- يا ويلي! ضاعت ابنتي، لا داعي، سأخبرك!

- هاها...ها، هذا أفضل! لا تُتعبيني!

- منال صبرية، جدّتها سمّتها منال وأنا وعليلو أضفنا إليه اسمك.

نظرت إليها نظرات مشككة، فأردفت رفيقة تؤكد:

- أنا وعليلونعزك كثيرا، ونتمنى أن تكون ابنتنا مثلك، مثيلاتك في هذا الزمن قليلات، بنات اليوم أغلبهن خاويات، مجرد دمى زينة.

- يكفي مغفَّلة واحدة! قاطعت مدحها، عادت كلمات طابتي ترتج في رأسها، وهو يقول عنها متأخرة عن بنات جيلها بقرن، وتفتقد للحضور الأنثوي، ولم يعد لدى رفيقة شك في أن الدموع التي تنزلق على خديها يضخّها داخلها، وليس فيروس الزكام، ربتت كتفها بحنو، وقالت:

- ما بك؟

- لا شيء، أردت أن أتحدث إليك قليلا، لكن الظرف غير مناسب.

- أنا بخير، طمئنيني عليك.

أجهشت بالبكاء.

- طابتي، أليس كذلك؟ قالت رفيقة جازمة.

- سيتزوَج ناريمان الأسبوع القادم.

- حذَرتك أكثر من مرة، قالت بانفعال ثم استدركت: مزقت أخيرا شرنقتك وأصبحت امرأة! الآن، أنا مطمئنة، اللحظات السعيدة آتية، بإذن الله!

- سيتزوَج ناريمان، ألا تفهمين معنى هذا!

- وافق شن طبقة! مجرد تافه، يكفي أن يفكر بناريمان! بذمتك، أهذا رجل يستحق الاهتمام؟!

- ليس هذا فحسب، لم يسجل المشروع الذي أعمل عليه منذ سنوات، كان بالنسبة لي دعامة، لم يخطر ببالي أن يكون مخادعا، وكاذبا.
- لا تعطيه شيئًا، اسحبي المشروع، اعرضيه على الجهات المعنية من دون وساطته.
- فات الأوان، صار بحوزته جميع التفاصيل، لم يبق سوى التركيبة النهائية.
- لا تعطيه شيئا، سنتحدث في الأمر عندما تشعرين بالهدوء، قالت لها مهدّئة، وأضافت ملعقة عسل فوق (الطمينة)، وقالت: تمنّي أمنية، يقال إنّ (طمينة) النّفساء مباركة.
- سبحان الله! ترددين أيضا خزعبلات جدتي! استهزأت بعرضها، لكن داخلها كان يستلذه، ونفسها تشجعها على أن تجرب، والمشكلة أنها لم تجد أي أمنية ترددها، نضبت الأماني، تيبّس ينبوعها ونضب، قالت بصوت مسموع، من دون أن تقصد أن تفصح عن ذلك لرفيقة:
- كان يتضور شغفا لقضاء أوقات مميزة مع ناريمان، سأله عماد: أين محط النحلتين؟ فرد عليه بغبطة: (كابري)! فعلق عماد، ممازحا: كابري معناها النعجة، يقال إنّ هذا الاسم أطلق على هذه الجزيرة الإيطالية لأن الرجل يصبح فيها مطيعًا كالنعجة، نحن نريدك ذكرا، كبشا يبعبع...

قالت رفيقة بنبرة تجمع بين النصح والمواساة:

- أليس سيُمسخ نعجة! لماذا الحسرة إذن؟ من قلة النعاج والخرفان! عمي لديه إصطبل كامل! اختاري ما شئت منها!

- هاها...هاها!

أضحكتها دعابتها رغما عنها، مسحت دموعها وغيرت الحديث، لكن حال أن خرجت من بيتها عاد إليها الشعور بالخسارة، وراحت تجوب الطرقات بلا وجهة، ولا إحساس بالمكان، والزمان، والعباد...والموجودات...لم تنتبه إلى محدّثها، حتى كرر السؤال أكثر من مرّة:

- هل تسمحين بأن أرافقك لبضع خطوات؟

كان كريم الصيدلاني، أخبرها ذات يوم بلا تردد بأن أحلامه مؤجَلة، وشاءت المصادفة أن يظهر لها في اللحظة التي امتلكت فيها جرأة غير معهودة لأن تعترف بأشياء كثيرة، بأن أحلامها انكسرت، وتشوّهت، مثلما حدث ذات يوم لرجلها... لكن مجرد أن بدرها بالكلام تراجع استعدادها ذاك.

- تبكين في وسط الشارع! هذا يعني أنَك في حالة لا شيء يهم! قال لها مستغربا.

زفت خطاها في اتجاه مستقيم تمامًا، من دون أن تأبه لما تصطدم به، وردت بنبرة مستنكرة:

- أنا مصابة بالزكام!

ابتسم ابتسامة مواسية، وقال:

- لعنة الله على هذا الزكام السمج! لا ينفع معه لا دواء! ولا مداراة! يعتصر العيون بسفاهة!

استمرت تسرع الخطى، وتتجاهل وجوده، فأردف يحاول مواساتها:

- كنت أراقبك منذ قطعت الطريق، مشيت في يوم ما الطريق ذاته، كنت أحاول أن أواري دمعاتي خلف نظارات شمسية في يوم ممطر، فامتلأت العدسات بأبخرة زفراتي، لحدّ أن حجبت عني الرؤيا.

اعترضت على المقارنة:

- أرى طريقي بوضوح!

- لا يهم أن تري طريقك، المهم أن تعي إلى أين تأخذك خطاك.

ابتسم ابتسامة عريضة لأنه أفلح في أن يجعلها تنطق، ولم تعلق هي على كلامه، استمرت تندفع بين جموع المارة اندفاع قذيفة، واستمر بدوره يحدثها، من دون أن يلتفت إليها:

- بكيت حينها بغزارة، فقدت أبي، وخسرت دراستي، وضيعت الفتاة التي أحبّها قلبي... وظلّ ثمة هاتف قوي

في داخلي يقول لي: سدد خطاك! أُدخل المعركة بضمير الكسبان، إنه امتحانك الأول، عليك أن تجتازه! وكانت تلك الدموع مغسلة الضباب، أدركت أن البكاء على الأطلال هو أكبر خسارة، ووضح الهدف.

ازدادت زخات دموعها، وراحت تخضَب وجنتها الفضَيتين كوجنتي صبي رضيع، فأردف مواسيا:

- تبدين رائعة حين تبكين، تزدادين براءة وألقا! ثم أضاف عندما لمس امتعاضها: هيا توقفي! توقفي اللحظة! وإلا دعوت عليك بأن يكون من نصيبك شخص في مثل ظروفي، وحينها ستبكين لسبب جدّي، هاها...ها...
- انصرف، كلحت في وجهه.
- يمكنك أن تعتبريني غير موجود، أريحي نفسك بالكلام، لن تخسري شيئا، لا ثمن للهواء.

صمتت لحظة وكأنها تشاور نفسها، همَت بأن تطرده، لكن الكلمات تراصت على طرف لسانها حارقة، فقذفتها، بلا تردد:

- هذا هو المستهلك المجاني المسمى الهواء هو في الحقيقة الأكثر كلفة، يخرج من أفواهنا أحيانا كالنابالم، يحرقنا أو يحرق الآخرين.
- أنت مصدومة! تمتم مستنتجا.
- إنهار التمثال، وردم أبنية كثيرة، وخمد بريقه.

– ...وحلت بروحك العتمة، أليس كذلك؟ قال مستكملا.

لم تعلق، باغتته بالسؤال:

– ماذا لو اكتشفت أن الشخص الذي كنت تعتبره مرجعية، مجرد لص؟

– على حسب.

قال بنبرة تطلب المزيد من التوضيح ثم خشي أن لا يصبر مزاجها على فخاخ لسانه، وأردف موضحا: على حسب ما سرق، ومن سرق.

– لا يهم من سرق، المهم أنه سارق ثقة، الثقة هي جوهر التعامل بين البشر.

– الثقة في غير محلها تكون أحيانا عرضا ساذجا للسرقة.

خشيت أن يذهب به التفكير بعيدا، وضحت أكثر:

– ماذا لو اكتشفت مثلا أن أستاذك، ومثلك الأعلى، يكذب عليك، ويستغل جهدك؟

– يستغله في ماذا؟

تلعثمت، لم تعرف بماذا ترد عليه، هي نفسها لم تكن تعرف لمَ تتهمه بالسرقة، لا دليل لديها، سوى شكوك، ولعلها خيالات الأنثى التي بث في نفسها حلاوة اهتمامه بها، وأوحى لها بأنها أُنموذجه المفضل، ثم اختار النموذج النقيض.

أحسّت بأنه يستدرجها في الحديث، غيرت فجأة مسارها، واتجهت صوب الرصيف، رفعت يدها، فوقف حذاها تاكسي، فتحت الباب وركبت، اكتفت بأن هزت رأسها وهي تغادر، في إشارة مبهمة، لم يدر إن كانت تشكره بها على مواساته، أم تثور عل تطفله عليها، استوقف السائق بعدها بخطوات، امتعضت واستعدت للنزول منه، ظنت أنه يريد أن يرافقها، لكنه اكتفى بأن أطل من النافذة المقابلة للسائق، وقال له:

– خزانك مليء بالبنزين؟

– عن آخره، رد السائق بثقة.

مد يده إليه بأوراق مالية، فرد له السائق ورقة من فئة مائتي 200 دج، وقال:

– هذه ممزقة.

نظر إليها، ووضعها في جيبه وأعطاه أخرى، وأوصاه:

– أوصلها إل غاية باب البيت، ولا زبون غيرها.

لم يترك لها فرصة أن ترفض عرضه، ولا ترك لها السائق فرصة أن تمنحه مقابل النقل، حلف اليمين، وقال:

– لا يجوز أن أقبض الثمن مرتين!

رفضت أن يوصلها إلى غاية بيتها، نزلت في مدخل الحي، وأكملت طريقها مشيا، وزفّت الخطى، أحست بحركة تتقفى

خطاها، أو هكذا أوحى لها جو الغروب، وسكون المكان، همت بأن تجري فخذلتها قدمها اليسرى، أكملت طريقها هرولة، وفتحت الباب بهلع، ثم انزلقت مباشرة إلى غرفتها لتخفي عينيها المنتفختين، وصوتها المبحوح، مددت جسدها للحظات على السرير، أطلقت فيها العنان لدموعها المحتبسة طيلة الطريق، ثم فتحت خزانتها، وأخذت المحفظة القديمة، وحضنتها بشدة، واستسلمت للنوم، لم تستفق إلا صباحا، وعليها بطانية دافئة، غطّتها بها أمها.

لوحة مجنونة

شعرت بالفراغ والوحشة بعد سفر طابتي، أصبحت تمر بمكتبه، وكأنها تمر بجبانة، أخذ معه حتى المرح الذي كانت تخفف به ناريمان ضغط العمل عنها، تثاقلت رغبتها في العمل، تسلل إلى نفسها الملل، والشعور باللاجدوى، فكرت أكثر من مرة في أن تُسرح اليرابيع، وتستقيل، لكن ثمة شيء ظل يشُلُّ يدها، ويمنعها من أن تنهي ما حاربت طويلا من أجل أن يبدأ، ونهتها نفسها، قائلة: «لا تكوني كمن تنقض غزلها، ثابري، لست هنا من أجله، أنت هنا من أجل ما هو أهم منه، ومنك...ومن أي باعث آخر.»

زاد حنقها عليه، واشتعلت الأفكار في رأسها، دهمها الشك في أنها تقوم ببحث علمي حقيقي، يعرف طريقه إلى التنفيذ، وبدت عودة طابتي جد بعيدة، نخر الانتظار في أعصابها، كان عليه أن يرد على أسئلتها، ويهدئ من هيجان شكوكها التي ترتفع كأنفاس مارد جبار، تتصاعد بشكل لولبي، تارة، وأفقيا، تارة... تتسع، وتضيق، حسب اعتدادها باللحظات، توقعت أن يزيح البروفيسور عماد بعض الغموض، عندما استدعاها لمكتبه،

لكنه نصب لها فخا آخر للحيرة، ما طلب منها أن تسلمه تقريرا عن أبحاثها، ولم ترتح لإطرائه، ولا لعرضه المساعدة.

– ما فائدة أبحاث تبدأ من هذا القبو وتنتهي فيه؟! قالت له بنبرة مرتابة.

لم يعي قصدها، ربط موقفها بزواج طابتي، وقال لها ناصحا:

– غالبا ما توجد غاية بعيدة في الحياة لكننا نراها بنظرات موضعية، أنصحك بأن تقدمي ملفك في أقرب وقت، كثيرا ما يصنع توقيت الأشياء الفرق، قد يصل الفريق المكلف بالتنفيذ في أي لحظة، لم يعد الوقت في صالحنا.

اختلطت الأمور في رأسها، لم تعد تعرف بمن تثق، ومن تصدق، راح هو يتحدّث وهي تنظر إليه باستغراب، وتسأل نفسها: «هل كنت أتقاضى منحة إضافية طيلة هذه السنوات لأجل جرذان مأزومة نفسيا، مثلما تم ذكره في الملف، هل هذا يصدّق!؟» زاد تصرف عماد ارتباكها، استغربت أن يقدم نفسه على أنه الوسيط بينها وبين ذلك المخبر، دارت الأسئلة برأسها دوران النرد على الطاولة، ارتخت أطرافها لحد أن اقتربت ركبتاها من الأرض، وقادتها الظنون إلى عوالم بعيدة، فكرت بكل الاحتمالات، أن يكون يستهزئ بها، أو لعله لم يتمكن من إقناع تلك اللجنة باعتماد أبحاثها...لم تعد إلى مكان وجودها إلا على طقطقة الباب، دخل بشير بكوب حليب، وضعه على الطاولة، وهم بالانصراف.

- لم أطلب شيئا! اعترضت عليه.
- افترضت أن تحتاجي إليه، مثل العادة، بعد يوم مرهق.
- لم أنزل إلى المخبر! ردت منبهة.
- أنتِ في وضع مرهق.
- لم أفهم!

ألقى نظرة إلى الرواق، ثم اقترب من مكان جلوسها، وقال لها بصوت هامس:

- تعبت كثيرا في أبحاثك، حافظي عليها قدر المستطاع، لا تضعيها بين يدي أيّ كان.

تذكرت تلك الرسائل التي بدأت تصلها بين الحين والآخر، تجدها فوق المكتب، وتحت الباب، وعن طريق البريد...تحذرها من الثقة بمسؤوليها في العمل، تطلعت إلى وجهه، بتمعن، استغربت أن يخفي وجه الهادئ، ذو النظرات الخابية، أمراً يثير شكوكها.

- لِم عليّ الحذر؟ سألته بقلق.
- ليس لدي المؤهلات التي تسمح لي بأن أفهم ما تقومين به، أنا مجرد عامل بسيط في هذه الإدارة، أدور بينكم بصينية المشروبات، وأنقل الملفات والبريد، من مصلحة إلى أخرى، لكن لدي إحساسي كإنسان، أنت

طيبة، بنت حلال، وتضحين بلحظات ثمينة من شبابك لأجل خير الناس، من الظلم أن يتم استغلالك ببشاعة.

- لمَ تبعث إليّ بتلك الرسائل؟ باغتته بالسؤال.

- أي رسائل؟!

ارتسمت ملامح الحيرة على وجهه، أكّد لها انفعاله أنه لم يكن الفاعل، قامت إلى الباب وأغلقته، وسألته بارتباك:

- أخبرني كيف يمكن استغلالي؟ تجاوزت أمر الرسائل وركزت على ما حذّرها منه.

- تدور الأحاديث في هذا المخبر عن وجود من يريد أن يستغل جهودك لفائدته.

- هل تقصد الدكتور طابتي؟

- لا أدري، لكن عليك أن تحتاطي، الطيبة الزائدة أحيانا هي السذاجة عينها.

ثبتت بصرها في وجهه، دارت في رأسها بعض تفاصيل تصرفاته، ولم تجد فيها ما يثير الريبة، وتذكرت حديث كريم ذات يوم عن صدقه، وطيبته، فشعرت بشيء من الاطمئنان إليه.

هل تريد أن تُساعدني؟ عادت تسأله.

هز رأسه بثقة، فحددت هدفها، قائلة:

- أريد أن أعرف كل شيء عن هذا المكان، بعباده وأشيائه، وهوائه... منذ بدأت العمل به إلى هذه اللحظة، هل يمكنك ذلك؟

- بالتأكيد، لكنني أخشى أن أخسر وظيفتي، لدي مسؤوليات.

يمكن أن نتحدث في مكان آخر، انتظرني في وقت الغداء، في مستشفى مصطفى باشا، أمام مصلحة الاستعجالات.

هز رأسه بالموافقة وانسحب، وقامت هي بجمع أغراضها، استعدادا للخروج، لكن رفيقة اتصلت بها، واستبقتها لدقائق أخرى، دعتها لتناول الغداء معها، فاعتذرت وبررت بأنها مشغولة.

- مشغولة بماذا؟ بإعادة ترتيب الكون! اتركي كل ما بين يديك وتعالي، ما عندي أهم.

- ماذا؟

- مفاجأة!

فكرت في أن تكون رفيقة قد عادت من جولتها، كانت تتقفى أثر ضحايا تفجيرات الصحراء عبر بوع البلاد، وتوزع استمارات عليهم من أجل إحصائهم، وتصنيف أضرارهم، وتقدير استعدادهم للمطالبة بالتعويض، وكانت هي في انتظارها على أحر من الجمر، لتمدها بمعلومات جديدة عن الإصابات.

- عادت رفيقة؟ لخصت توقعاتها.

- ما هذه البلادة! أحدثك عن شيء أهم، تقولين رفيقة! أستغرب كيف وظّفوك بوكالة تضم عباقرة! على رأي الشاعر، خدعوكِ بقولهم غير بلهاء! قالت ممازحة ثم أضافت تكشف عن مفاجأتها بحماس كبير، وصوت يجلجل بالفرح: زارنا ابن عمّ عليلو الذي حدثتكِ عنه، أظنه يعرفك، طلب مني بعض التفاصيل عن طفولتك، ودراستك...وكل ما يدل على اهتمام رجل جادّ بامرأة!

استمعت إليها هي من دون أن تقاطعها، ثم باغتتها بالسؤال:

- كيف يعرفني؟ زُرته في المنام!

أدركت رفيقة أنها تشكك في روايتها، وراحت تبرّئ نفسها:

- هو من بادر إلى الحديث عنك، أقسم لك!

- ماذا قال لك تحديدا؟

- لا شيء محدد، سألني إن كان لدي صديقة تعمل بوكالة الأبحاث، وذكرتك له، وشجعته على الارتباط بك، قالت لها بنبرة جادة ثم عادت للمزاح: اضطررت إلى أن أزين له الحقيقة، داريت أنك تنامين في أحضان الأوراق والكتب، لا يوجد رجل عاقل يرضى بأن يعيش مع مُجلّد! هاها...ها!

تجاوزت صبرية مزاحها، وعادت تبحث عن التفاصيل:

– وبماذا أجاب؟

– احمر وجهه خجلا، فهو يستحي مني، أنا بمثابة عمته، اكتفى بأن سألني إن كنتِ خالية من أي ارتباط.

أسرعت إلى جوابها وكأنها تصد بابا في وجه عاصفة:

– قولي له مرتبطة!

– حقا؟ مبروك! منذ متى؟

غيرت جوابها تفاديا للعلوق باستجوابها:

– لم تعد موجودة، هذا أفضل!

– تبخّرتِ أم حنّطك طابتي في مخبره ليضمن بقاءك في غيابه! ألحت رفيقة بمزاحها.

وضعت السماعة على المكتب، وراحت تعيد أغراضها المتناثرة على المكتب إلى حقيبة يدها، تجنبت سماع بقية المحاضرة التي انطلقت من مكبّر الصوت، عن ضرورة أن تلتفت إلى نفسها، كان يشغلها أمر بشير، الذي سبقها إلى المستشفى، قرّبت الهاتف من فمها مرة أخرى، وقالت تُنهي المكالمة: «أنت في مزاج رائق وأنا وقتي متبخر! سأتّصل بك لاحقا، سلام!»

المواجهة

انبثقت الهواجس في داخلها، وتشوّش ذهنها، كثر إلحاح عماد عليها بأن تسلم له المشروع، ونفدت ذرائعها في المماطلة، قررت أن تبتعد إلى حين عودة طابتي، تركت له طلب عطلة مرضية وانصرفت، أطلقت العنان لقدميها لتمشطا الطرقات، كما لم تفعل منذ زمن، بدت لها خارطة الشوارع والأزقة متغيرة عن ذي قبل، أو ربّما انمحت معالمها المعتادة في رأسها، لفرط ما درجت على اجتيازها بذهن مشغول وأعين غير مبالية، تملّكتها الرغبة في أن تجوبها لهدف مختلف، وأن تغوص في أعماق الأزقة، وأسماء الشوارع، وتُدقّق في نقوش البنايات، والمعالم، وتكتشف خبايا المحال والمتاجر، وتتفقد أسعار السلع، والمعروضات الجديدة...لكن قدميها وضعتاها على المسار المعتاد، محطة الرجوع إلى البيت، همّت بأن تركب الحافلة ثم تراجعت، تذكّرت أنها مَدينة لرفيقة بزيارة، بعد أن رفضت دعوتها للغداء.

وجدت باب العمارة على غير العادة مُغلقا، وانتبهت لأنها ارتكبت مرة أخرى حماقة عدم الاتصال بها مسبقا، ثبّتت

بصرها في شُرفة شقّتها، ولم يظهر أحد، ولم يكن يسهل عليها إخراج هاتفها النقال للاتصال بها، وبين يديها قالب الحلوى، والهدايا التي اشترتها لولديها، وكأن العمارة خلت من السكان، لا داخل إليها ولا خارج منها، مرت لحظات قبل أن يأتيها الفرج على يد أحدهم، مرّر يده على القفل ثم دفع مصراعي الباب، فانفتحا معا، وأشار إليها بيده بأن تتفضّل بالدخول، شكرته واندفعت تصعد السلالم، وصعد هو بعدها بفارق بضع درجات، وصلت إلى شقة رفيقة فاستدارت ووقعت عينها عليه، أحسّت بأنها تعرفه، ولم تتذكّر متى وأين، نظر إليها هو بتمعّن ثم عاد أدراجه بسرعة.

لم تنطبق أوصافه على ملامح أي من شباب الحي، ظنّته عابر سبيل، أو زائرا، وتناست الموضوع، لكن مجرد أن لمحته مرة أخرى جانب العمارة، أزهر في أعماقها فرح غامض، تسرب إلى كل خلية من خلايا كيانها، وبرق وميض غريب في عينيها، ثم خبا أمام قوة أبواق عقلها التي حذّرتها من مفاجآت الغرباء، ردّت عليه التحية من دون أن تتوقف، لكن أوصافه ارتسمت في عينيها بشكل أوضح، ولم تجرؤ أن تسأل عنه رفيقة مرة أخرى، كانت تدرك أن تلك المصادفة، بالنسبة لها، لا تحصل إلا مع شخصين في ذلك الحي، معجب يتقفى حظه أو سارق يترصد ضحيته، وفي الحالتين كانت ستجعل منها حديث اليوم، وتسأل عنه علي، وحماتها...وقد يصل بها الفضول إلى حدّ أن تسأل صاحب دكان البقالة المجاور، آثرت الصمت، واستلمتها

الأسئلة: «هل هو من سكان الحي؟ زائر؟ عامل به؟ هي مصادفة أم كان يترصدها؟ ما سرّ تلك الابتسامة الشحيحة الغامضة التي ارتسمت على وجهه؟»

رافقتها تلك الأسئلة وهي تخرج من عندها، التفتت يمينا وشمالا على أمل رؤيته، ثم واصلت طريقها، وألقت الموضوع على الصدف التي ترسم الصور وتمحوها، فما كان ينتظرها كان أجدر بأن يشغل بالها، عاد طابتي من عطلته، وكان عليه أن يُوفّي دينه من الأجوبة، تركته لنفسه لبضعة أيام ثم قررت أن تُجبره على المواجهة، بعثت إليه برسالة أربكته، اختفت اليرابيع فجأة من المخبر وحلّت محلّها الفئران والنّسانيس، فأسرع إليها، وراح يتحدث إليها بارتباك، ويأخذ نفسا بين الجملة والأخرى بشكل يوحي بأنه يقتطع فرصة ليفكر في الكلمات التي تليها.

– لا أنكر أنك مميزة، لديك ميزات لم تخلق لغيرك، لكن هذه الصفات وحدها لا تكفي لتصنع الباحث الناجح، الباحث الحقيقي يلتزم بواجباته، مهما كانت الظروف، لأنه لا يملك حشو جمجمته، دماغه ملك لكل من يحتاجون إليه، للبشرية جمعاء، هو مجرد حائز لتلافيفه المخية، لا أكثر ولا أقل، وعليه أن ينأى بها عن أي عاطفة أو حسابات ذاتية.

راح يتحدّث، وهي صامتة، جامدة النظرات، ثم أرخت شفتها السفلى، وقالت بنبرة توحي بالاستهزاء:

- تركت لك ذات الجناحين على الطاولة، شكرا، كانت مفيدة!

استغرب تعليقها الاعتراضي، اختطف إلى وجهها نظرات تختزن الأسف على التغيير الذي شاب تعابيره، انطفأ وهج الإعجاب في عينيها، بل أحسّ بأنّها تحتقره.

- من أي ناحية؟ شدّ على فكيه، وقال لها مُسايرا.

- الغلاف مُلفت!

- اكتفيتِ بالنّظر إلى الغلاف؟ أوحت نظراتك بأنّك ستلتهمينها!

- بلى، اجتررتها لمرات يصعُب عدُّها، لدرجة أن انطبعت في ذاكرتي كلمة كلمة، لكن صورة الغلاف حكاية أخرى، ابتلعتني، وعرّفتني بدور القشرة في اقتناص الاهتمام باللُّب.

شعر بأنها تلمح لكونه حاول أن يتصيد اهتمامها بالغلاف، قال موضحا:

- أردت أن أحفزك على قراءة المضمون.

- شكرا، أدركت أهمية الانتباه لكمائن المُغلَّف، وهنا تكمن الفائدة.

جالت في ذهنه أفكار متفرقة، عن قصدها بالمُغلّف، لكنّه تجاوز تلميحاتها، وركّز على الموضوع الذي يشغل باله:

- أين اليرابيع؟

- أي يرابيع؟!

رمقها بنظرة شزراء، وقال محذّرا:

- لا أفهم كيف أفلتت عملية إخراجها من رقابة الكاميرات! سيتم التحقيق في ذلك، يجب أن تعود إلى المخبر في أسرع وقت ممكن، المسؤولية كبيرة، تسريبها قد يتسبب في كارثة.

نظرت إليه نظرة خالية من أي تعبير، وقالت:

- لم تلتقطها الكاميرات! إذن، لم تخرج، لأنها أصلا غير موجودة، لكن الفئران والنّسانيس لا تزال في مكانها، وهذا هو المهم.

- لا يليق بكِ هذا المزاح السّمج، لا يمُتُّ لشخصك بصلة، الوضع خطير، والمسألة أكثر تعقيدا مما تتصورين.

- لم أكن جادة في حياتي مثل الآن، ألق نظرة على السجلات، فإن وجدت أثرا لطلبية يربوع أو مشروع تطهير، اتهمني بأكثر من المُزاح، بالجنون مثلا، أضافت بنبرة هادئة تنغطس في التحدي.

لم يشأ أن يدخل معها في نقاش لا يفضي إلى حاجته، أدرك أنه وقت الحقيقة، حدّق إليها لثوان، وكأنه يتفقّد قدرتها على استيعاب كلامه، وأضاف:

- كما تعلمين، لا يوجد لدينا مخبر للتجارب النووية في هذه الوكالة، فاضطررت إلى أن أتحايل، وأسجل البحث بعنوان الطب النووي، ما من خيار! هذا البحث يجب أن يظل طيّ الكتمان، الأبحاث التي تتعلق بالأسلحة النووية قد تضع الدول في وضع مربك، فما بالك بالأشخاص.

- ما علاقتي بالأسلحة النووية؟

- من يعرف الطريق إلى تفكيك آثار السلاح النووي لابد وأن يعرف الطريق إلى تركيبه.

صمتت للحظات، أرعبتها فكرة صناعة السلاح النووي، عادت إليها صور الدمار، والخراب، والضّحايا...وخشيت أن يكون يخطّط لجرّ رجلها إلى طريق لا تريد أن تمشيه.

- لماذا لا يتم القيام بالتجارب الطبيعية هنا، لماذا يجب أن يُسرّب المشروع، ويُباع، وكأنه قطعة مخدّرات؟ ركّزت على موضوع التطهير من الإشعاعات.

أدرك أنها تشكّ في أهدافه، تراخت نظرته، وقال بنبرة المغلوب على أمره:

- لا مكيال له هنا، يستحيل أن تتم تغطية تكاليفه، التي تقدّر بملايين الدولارات، ويستحيل أن تنالي مقابل جهدك، تعاقدنا مع ذلك المخبر فرصة كبيرة، قام

بتغطية مصاريف كل ما قمنا به لحد الآن، سَفراتك، وأبحاثك...وأتعاب الفريق الذي يهتم بإطلاق اليرابيع في الطبيعة وإعادة جمعها، ومراقبة سلوكاتها، عن طريق أجهزة رقابة إلكترونية، إنهم خبراء مختصون، ويبذلون جهدا كبيرا لتصلك تقارير بمثل تلك الدقة، أغلبهم أجانب، تركوا بيوتهم وحياتهم هناك من أجل مشروعك، نحن مدينون لهم بما وصلنا إليه، اطمئني، أنت في الجهة الرابحة، بل أنتِ الرّابحة، ستدخلين التاريخ، وتُذكرين مع العلماء، هذا بغض النظر عن المقابل المالي الذي لن تحصلي عليه هنا، ولو في خيالك، أمامك فرصة فريدة لتتغير حياتك، استغلها كما يجب، لست الباحثة الوحيدة في زمنك، يمكن أن تكوني كذلك فحسب لو أحسنت استخدام ذكائك.

راح يحفزها على التعاون مع ذلك المخبر الأجنبي، والتعاقد معه، ثم استخرج لها ملفا فيه مجموعة من الفواتير والحسابات، وقال يؤكد صدق كلامه:

– هذه هي الوثائق تُثبتُ تمويلهم للمشروع، اجلسي هنا، واطلعي عليها على مهلك.

تسارعت دقات قلبها، وهي ترى الأرقام الكبيرة التي كتبت عليها، كان ذلك هو الملف الذي رأته يوما بين كتبه، طافت كلماته برأسها، تراءت لها صورتها هي تركض في آخر النهار

وراء وسائل النقل، بعد يوم متعب في المخبر، لأنها بعد سنين من العمل لا تزال لم تكمل ثمن السيارة، وفكرت في وضعها كإدارية متعاقدة، براتب هزيل، تدير نشاطات تقدّر بالملايير، وتطلّعت إلى وضعية معظم زملائها في قسم الفيزياء النووية، الذين انطفأوا في عباب المحسوبية، وقلة الفرص، رغم أنهم من أوائل الناجحين في البكالوريا...أحاطت بها كلها كغمامة سوداء، ضغطت جفنيها ثم فتحت عينيها وسعهما، وكأنها تُزيحها عن بصرها، وقالت له:

- عندما بدأت بهذه الأبحاث لم أفكّر في أيّ مزية، ولستُ مدينة بشيء لأصحاب ذلك المخبر، حتى أتنازل لهم عن أبحاثي، أريد أن تتم هذه التجارب هنا، هل يوجد ما يمنع ذلك؟

ابتسم ابتسامة قلقة، وقال:

- المجتمع الدّولي لا يسير وفق المثاليات التي تقرئينها، عن سيادة الشعوب، وحظوظها في التطوّر، توجد مصالح، وحسابات مختلفة تتم على أساس نظرية تأثير الفراشة التي أطلقها عالم الرياضيات والأرصاد (إدوارد لورنتز)، تحريك جناح الفراشة في بقعة من الأرض كفيل بإحداث تغيير في بقعة أخرى، العالِمُ حر داخل حدود مخبره، لا تحكمه سوى واجبات الضمير، وقواعد علمه، أما خارجه فهناك منطق آخر للبحث

العلمي، وله نظامه، وأربابه، خاصة عندما يتعلق الأمر بالسلاح النووي.

- لست أهدف إلى صناعة السلاح، قاطعته منبهة.

- لكنك تتدخلين في هذه الصناعة، وتؤثرين في سوقها، أنت تقللين من آثاره، وهذا يعني أنك تنقصين من هيمنة دائرة كبيرة، بمختلف مستوياتها، الصانع، والوسيط، والمشتري، والبائع، وصاحب السلطة، الجهة التي تملكه... تُساهمين في تغيير خارطة القوة...هل يمكنك أن تتوقعي طبيعة الأطراف التي تزُجين بنفسك إلى مواجهتها؟ لا يمكننا التراجع، أشخاص مثل أولئك لا يمزحون، كلمتهم واحدة، وعدوا بأن يكون المقابل عند استلامهم المشروع النهائي خياليا، لكن التراجع عن الاتفاق سيكون أيضا مكلفا، أقلّه رأسينا.

- هل هذا يعني أنهم سيشترون مشروعي بغرض أن يطمروه؟ أرعبتها الأفكار التي اختزنتها تلميحاته.

- بل ليستخدموه الاستخدام اللائق، أنت فحسب سلّمي، ولا تشغلي ذهنك بالباقي، هذا الموضوع له أصحابه، تم البت فيه منذ كان مجرد توصيات في مذكرة الماجستير، هؤلاء القوم لا يلعبون، كل شيء بحساباته، أنت محط أنظارهم منذ ناقشت المذكرة، هل انتبه أحد لكِ هنا؟

حدّثها بصراحة، تمزق الغلاف المريح، ذو الألوان الأسطورية المطمئنة، وظهر مُغلّفٌ مخيف! وجدت نفسها في دوامة، اتقدت هواجسها، أرعبتها فكرة أن تكون محط أنظارهم منذ كانت طالبة، إنها سنوات، وتساءلت من يكون أصحاب ذلك المخبر، وغرضهم الحقيقي من أبحاثها، وإن كان طابتي قد ساعدها على العمل بالوكالة في إطار تنفيذ مخططهم...شعرت بالرهبة، خشيت أن يقوم بتوريطها في عمليات ضد مبادئها... سألته وهو يغادر:

- لِمَ لا يكون لدينا مخابر مثل مخابرهم؟

جال بنظراته في كل أرجاء المخبر، وقال:

- أترك لك الإجابة، لعلك تدركين أين تكون مصلحتك.

جالت بدورها بنظراتها في كل أرجائه، وكأنها تكتشفه من جديد، وقالت:

- سأخبرك بقراري ريثما أعود من إجازتي، ستوافق على طلبي، أليس كذلك؟

- بالطبع، تستحقين أكثر من شهر راحة بعد كل المجهود الذي بذلته، عديني بأن تعودي كما كنت، قال بنبرة متوسّلة.

- أعدك بأن أفكر.

- واليرابيع؟

– ستعود معي.

– بل قبلك، المسؤولية كبيرة، لا تنسي الشرائح التي تحملها، هذا علاوة عن خطر تسرب الإشعاعات.

– لا تقلق، وضعتها في صناديق عازلة، أعرف كيف أبقيها بعيدة، هي فرصة لأتتبع تطوراتها في كل وقت.

شعر بشيء من الارتياح، وقال لها مشجعا:

– - لن يضر غيابها عن المخبر لفترة مادامت في عهدتكِ، أنتِ عالمُها الحقيقي، تعرفينها كما لم يعرفها أحد.

«أنتِ عالمها...عالمها...»

ضجّ دماغها بعبارته بقدر ما ضج بالفرضيات، وتشبّع بالتجارب المخبرية، وجاء وقت التطبيق في الطبيعة، وبكميات تفوق آلاف المرات الكميات المخبرية، مضت الليالي، والأيام... والسنين، وهي تنكش في بطن الذرة، وتعبر مساحاتها المجهرية مثلما يعبر محراث أراض صخرية، بيد تلوّح لأمل بعيد، يتصارع فيه الواقع مع الخيال، كلاهما يقول لها أنت ملكي، خاصّتي، وهي بينهما معلقة كالذبيحة، والآن اقتربت ساعة الحقيقة، ولم يبق أمامها سوى خطوة أو خطوتين، ويتبين لها نجاح مشروعها، أو فشله، ويُفضُّ الخصام الذي نشب بينهما ذات يوم في دفتر تلميذة، كتَبتْ على إحدى صفحاته، بألم:

« جعلتكِ يا ذرة منذ الآن قضيتي، سأرفع عنك غبنهم، وأبرئُكِ من شرّهم...وأعينك على كل من جعلك رهينة عقله المدمر...أدرك كم عانيت... حين نسفوا، على لسانك، هيروشيما ونافازاكي... وفي كل مرة لبستكِ همجيتهم قناعا حضاريا...أعدك بأن أسعى إلى تحريرك من شياطينهم، سأُلقي بنفسي في نواتك، وأنحشر، باستماتة، بين نيوتروناتك وإلكتروناتك...وبروتوناتك... وكل شواردك...من أجلك، ومن أجل كل ضحاياهم السابقين والمحتملين، وأغسل عفنهم بمطر البراءة... ثقي بي، وانتظريني.»

تكرر النداء ذاته، كالهاتف العلوي، في كل خطوة قامت بها...عندما توصلت إلى النتائج الأولية، ثم الثانية، والثالثة... وحين تحصلت على التركيبة التي كانت تحلم بها، التركيبة النهائية للمُطهّر، وعلى السائل الذي يعمل على تفكيك الروابط الكيميائية في النواة المشعة...وحين جربت بنجاح العمليات المتعلّقة بضغطه، وتحويله إلى جزيئات غازية، يتم تفجيرها في الجو، فتتغلغل في نواة الإشعاعات المنتشرة في الطبيعة، وتفكك روابطها، وتعيد التفاعل معها، وتتحوّل سمادا، نافعا للعباد والجماد... عاش معها ذلك النداء كل اللحظات التي جرّبت فيها أثر السائل المطهّر الذي توصلت إليه على النباتات، والجو، وعلى جينات جيلين من اليرابيع، لتتأكد من عدم إضراره بالكائنات الحية.

الإنسان لا يولد مرة واحدة، بل أكثر، مرة عندما يخرج من ظلمات رحم أمه إلى الحياة، وفي كل مرة يخرج من ظلمات نفسه إلى واقع جديد، لكنها في هذه المرة لم تشعر بمتعة الخروج، لم يعد التراجع إلى قبو المرحلة السابقة ممكنا، ولا يسهل التنفس في وسط بليد، تشوبه الحيرة، والشكوك، والارتباك.

***

خطت خطوات نحو الشارع المقابل ثم توقفت على بضعة أمتار من المحطة، وراحت تغرف بيدها في حقيبتها، وعيناها مثبتتان في داخلها، فانبعث جانبها صوت هامس:

– هل تبحثين عني؟

فزعت، كاد قلبها ينخلع، وجدت نفسها مرة أخرى في مواجهة ذلك الشخص الذي قابلته أمام بيت رفيقة، بدا أكثر جرأة ورغبة في الحديث إليها، وجعلتها رؤيته في مزاج مختلف، ردّت عليه من دون أن تفكر:

– هل أنت حافظة نقود؟

ابتسم ملئ شدقيه، وقال:

– أنا لُطفي.

– لماذا أبحث عنك إذن في حقيبتي؟

قهقه قهقهة تهدم تلك الهيبة التي تحيط بشخصه، لم يتوقع أن تعرف سحنتها الجادة النكتة، ولا توقعت هي أن تخرج إجاباتها مناورة، مشاكسة، على غير عادتها.

– أقصد لحظة خروجك من باب العمارة في ذلك اليوم، رأيتك تلتفتين يمينا وشمالا، وتباطأت قبل أن تغادري الشارع.

ردت عليه من دون أن ترفع نظرها عن حقيبتها:

– كنت ضائعا؟

هز رأسه بالنفي، وأطلق ضحكة أخرى، تجاهلته، وأطبقت يدها على التذكرة التي كانت تبحث عنها، وأسرعت نحو المحطة، أحس بأنها تتوجس من طريقة حديثه، لحق بها ووضع في يدها قصاصة ورق، همت بأن ترفضها، فارتفع صوت في داخلها، ومنعها.

-هل يمكن أن نتحدث من فضلك؟ أنا جاد، قال يستوقفها.

حدثته على مسافة مترين أو أكثر، شعر بأنها تتعمد أن تُحرجه، تدفّقت الدماء إلى وجهه، وهي تستنطقه كتلميذ صغير، مدّ بصره نحو الطريق، وأقفل الحديث بنبرة جافّة:

– وصلت حافلتك.

تركها في ذهول، استغربت أن يعرف رقم الحافلة التي تنتظرها، ظلت طوال الطريق تركز في البطاقة التي تركها بين

يديها، مع كمية من الحيرة، قرأتها بتمعن: «إطار بشركة بترولية... الهاتف الثابت... الفاكس، الهاتف النقال...الإيمايل...» ولا شيء يخبرها من يكون، ومن أين خرج لها، ولمَ يظهر في كل مرة ليختفي من دون أن يقول شيئًا محددا... تملّكها الفضول، ودت لو تراه مرة أخرى لتكون لها نظرة أعمق، زارت رفيقة أكثر من مرة ولم يظهر، انتهت عطلتها وعادت إلى العمل وتناسته، لكن صوتا في داخلها ظل يرتفع، بين الفينة والأخرى، ويلح عليها بأن تكتشف أمره، رفعت سماعة الهاتف واتصلت على أحد الأرقام المدونة في بطاقته.

- ألو ...قالت بعد تردد.
- من معي؟ رد صوت نسائي ناعم.
- هل يمكنني أن أكلم السيد لطفي؟
- من يطلبه؟
- أنا...أنا...طيب، شكرا ... سأتصل به لاحقا.

أقفلت السماعة بارتباك، زاد أجيج فضولها بدل أن يخمد، تأكدت من وجوده، وأصبحت تستفسر عن حقيقته، لم تكن بحاجة لأي خطوة هذه المرة، جاءها الصيد إلى وكرها، أقفلت الشباك، وأطفأت الكمبيوتر، وهمت بأن تغلق الباب عندما رن الهاتف.

- ألو، كيف الحال؟ قال صوت رجالي قوي، على قدر ما حاول صاحبه أن يجعله ناعما وخافتا.

- من معي؟

- أنا من معي؟

- تُنكّت؟

أقفلت السماعة بلا تردد، اضطر إلى أن يعيد الاتصال أكثر من مرة.

- نعم؟

- أنا لطفي.

- لطفي من؟

- حافظة نقودك، ألم تبحثي عني هذه المرة؟

- إذن فأنت ضائع.

- وأبحث عمن يُعيدني إلى البيت، هل لديكِ الاستعداد؟

صمتت ولم ترد، ندمت على تجاوبها العفوي مع مزاحه، راحت تستمع بتمعن، لتتأكد من كونه الشخص ذاته.

- في الأقل لا تأخذي السكرتيرة بذنبي، انزعجت من تصرفك، قال معاتبا.

- لم أفهم؟

- انسي الأمر، أنا سعيد لأنك اتصلت، يا دكتورة.

سألته بارتباك:

- كيف عرفت من أكون؟

رد بلا تردد:

- طوبى لمن اخترع مسجل الأرقام! اتّصلتُ بمؤسستكم، وعرفت أنه الرقم الخاص بمكتب الدكتورة صبرية، ألست صبرية؟

شعرت بالحرج، وندمت على تصرفها، الذي أبداها أمامه كطفلة تائهة، كانت تجهل أن حذرها راق له، وأعطاه فكرة عن مفتاح التقرّب منها، سعى لأن يقوي ثقتها به شيئا فشيئا، أصبح يكلمها بين الحين والآخر، يتحجج بأخذ رأيها في موضوع يتعلق بعمله، أو بمجال عملها، كثرت مكالماته، وتزايدت أسئلتها، وأصبحت هي ترتاح لأحاديثه، وتستمتع بطريقة ظهوره واختفائه، لكن مع مرور الوقت، تسللت الريبة إلى نفسها، عن نواياه، وغرضه من التقرب منها، استجمعت شجاعتها، وواجهته:

- لمَ تُصرّ على اقتحام حياتي؟

- لأنك اقتحمت حياتي، السن بالسن...والبادئ أظلم.

ردت عليه ببرود:

- وماذا بعد؟

- صكٌّ على بياض، حدّدي أنتِ ما تُريدن.

حمّلها مسؤولية الخطوة التالية، وواجهها بتوهانها، فلم تكن في الحقيقة تعرف ما تريده هي بدورها منه، عدا تلك الأحاسيس الدافئة، التي تُشعرها بأن الحياة أحلى مما كانت تتصوّر، جملة من الهواجس، شعرت بالارتباك، ازداد يقينها بأنه ليس أيّ شخص، أوقعها في فخّ الجواب، ظلت لأيام تراجع ما قاله في رأسها، انقطعت اتصالاته، ولم تجرؤ على الاتصال به، لم تكن تعرف بعد إن كان عليها أن تخط شيئا على بياض عرضه أم تتجاهل صكّه، نهرتها نفسها: « عاشرت أمك والدك لسنوات، وأنجبت له قبيلة، ولا تزال لحد الساعة تشكو من كونها لا تعرفه، وأنتِ تظنين نفسك تعرفينه من بضعة أحاديث!» شعرت بالحيرة، أحست بالحاجة للمشورة، ذهبت إلى رفيقة، وبدأت توطئ للحديث عنه.

– هل تذكرين الشخص الذي فتح لي باب العمارة في ذلك اليوم...

قطع رنين الجرس حديثها، فثبتت بصرها في الأرض، ظنته حما رفيقة، لكن الصوت الذي اقترب منها جعل الدماء تفور في عروقها، استغربت أن تصل به الجرأة إلى حدّ أن يتبعها إلى بيت صديقتها! جمدت في مكانها، اعتراها ذهول لا يقل عن ذهول رفيقة، بينما جلس هو بكل هدوء، وقال لها:

– أريد أن تخطبي لي صديقتك، ستذهبين مع أهلي الأسبوع القادم، ثم التفت إلى صبرية وقال: سقط الأجل، أصبح من حقي أن أصرف الشّيك على طريقتي.

– يويو... يو يي! أطلقت رفيقة زغرودة طويلة، وقالت: أخيرا أصبحت سِلفتي!

رتّب القدر لقاء تجاهله قبلا كلاهما، لم يكن سوى ابن سلف رفيقة، كان يتهرّب من عرضها، ويرى أنها تبالغ في وصفها بقديسة زمانها، وجميلة الجميلات، فإذا به يتوسل إليها بأن تساعده على التعجيل بالخطبة والزفاف.

وِدّ قسري

انتهت عطلة الزواج ولم تعد إلى العمل، تكررت ذرائعها وطال غيابها عنه، راحت تبعث بالشهادة الطبية تلو الأخرى، لكن طابتي لم يقم بإرسالها إلى مديرية الموظفين، خشي أن يصدر ضدّها أمر يستفزّها، ويدفعها إلى ترك العمل، كما خشي أن يصل خبر توقّف المشروع إلى علم جماعة الخارج، وتفلت الأمور من بين يديه، انضغطت أعصابه، ولم يعرف كيف يتصرّف، لم تعد ترد على مكالماته، قطعت عليه كل سبل التفاهم، لكنه لم يستسلم، ظل ينكش وراءها، ويفكّر، واكتشف أن المصادفة وضعت في طريقه حلًّا، عرف أن زوجها يعمل في الشركة التي يديرها نذير، خال ناريمان، وطلب مساعدته، وهكذا اضطرّت إلى العودة إلى المخبر، من حيث لم تحتسب، وبنفس كسيرة، لم يخبرها لطفي شيئًا عن تفاصيل حديثه مع مديره، لكنها استنتجت من الحنق الذي اختزنته نظراته أن كمَّ الضغوط لم يقل عن كمِّ المحفزات، التي ظهرت فجأة، ففي ذات الأسبوع الذي عادت فيه إلى أبحاثها، حصل على ترقية، وزادت سفرياته.

صدمها تصرف طابتي مرة أخرى، عادت وهي تضمر له النفور، والاشمئزاز، اتّجهت مباشرة إلى مكتبها، تجنّبت رؤيته،

فأسرع إليها، واستقبلها بلهفة غير معهودة، أحسّت من نظراته وانفعالاته أن حاجته لم تكن فحسب إلى عملها، وإنما كذلك إلى وجودها، وكأنّها أول مرة يراها فيها، بدت له مبهرة، ومختلفة، وقال في نفسه: «أين كانت تُخفي كل ذلك! عماد مُحق! قليل من الاهتمام بمظهرها، وعبق سحرها! حتى مشيتها تغيّرت، اختفت تلك الخطوات المتعثرة!»

– مبارك، قال لها مرحبا، ثم أضاف عاتبا: ولو أننا لم نحظ بدعوة.

– حدثت الأمور بسرعة، اعتذرت بصوت سئم، من دون أن تنظر إليه.

– أفترض أنك أخذت قسطا كافيا من الراحة.

صمتت لحظة، وكأنها تشاور نفسها، ثم رفعت بصرها نحوه، وقالت له:

– كنت أود أن أعود آخر الشهر، لكن يبدو أن عملي بالمخبر لا يعني فحسب هذه الوكالة.

– هل من جديد؟

فهم أنها تلمّح لاستخدام زوجها كطعم لإجبارها على العودة، مكرهة، خانعة، غيّر موضوع الحديث، ولم تنسق هي وراء الملامات، لم تر جدوى من الصِّدام، ضغطت على نفسها، وراحت تحدثه عن بعض الملفات التي وردت عليها في ذلك

الصباح، وهو يستمع إليها بقلق، ثم ثبت نظراته في يربوع كان يتقافز في قفصه، وقال:

– والأبحاث؟

– مستمرة! سيكون إنجازا عظيما بإذن الله، سأتأكّد هذا المساء.

لمع في عينيه بريق فرحة، وقال لها بلهفة:

– ممّا؟

– أنتظر نتائج اختبار الحمل، حمدا لله، أفلحت في أن أكون زوجة، وأظنّني مشروع أم.

– أهنّئك.

نطق لسانه بالتهنئة، وأضمر قلبه غصة غامضة، باغتته بعتاب قديم عن حساب قديم، لم يُصفَّ بعد، حين قال عنها لعماد أنها لا تصلح لغير المخبر، ودَّ لو يطول الحديث بينهما، ويبيّن لها أنها كانت انفعالات داخله التائه، لكنها انصرفت، وتركت له تساؤلات تلكَمُ فضوله المكتوم: «هل أصبحتُ مجرَّد ذكرى موصوفة؟ أليست جمرا خامدا يتوهّجُ بأثرٍ رجعي؟»

***

عادت مساء وفي يدها دليل الفرحة، وجدت لطفي في انتظارها بصحن كبير من سلطة الفواكه، أبعدته عنها، وقالت:

- لا أطيق رائحته!

- ما من خيار، هذا لابنتي.

- ولمَ ليس ابنك! احتجّت على رغبته.

- أتمنّى أن تكون بنتا، وتتفوّق على والدتها في المخبر،

انتفضت مستهجنة:

- إلا المخبر! أريدها أن تعيش حياة طبيعية، لا أريد أن ينقص من عمرها، ولو ربع ساعة.

قرّبت ملعقة السلطة من فمها ثم ضغطت ملامح وجهها، وأبعدتها عن فمها، وقالت:

- تذكّرت، طابتي دعانا للعشاء، واعتذرت.

اعتدل لطفي في جلسته، وقال بنبرة مُحتجّة:

- لا! لمَ؟ المخلوق يريد أن يُجاملنا! هي فرصة لأطلب منه أن يُراعي ظروفك.

شعرت بالامتعاض، ودّت لو اتخذ موقفا يحفظ كرامته، وكرامتها، لكنها لم تفصح له عن رأيها، بررت له بذريعة أخرى:

- أُفضّل أن تبقى حياتي الخاصة بعيدا.

- اعتبرها جلسة عمل.

- هل ضغط عليك مديرك من جديد؟

– كلا، أود أن أعرف محيط عملك عن كثب، هذا كل شيء.

استغربت أن يحاول أن يقنعها بقبول تلك الدعوة، بدل أن ينفعل ويرفض، أرادت أن تبدد مخاوفه بشأن ظروف عملها، أكّد عليها أكثر من مرة أن تتجنب الإشعاعات، لحين أن تضع حملها، لم تجد تفسيرًا غيره لإصراره على قبول تلك الدعوة الغريبة، وكتمت تذمرها، وأرغمت نفسها على الجلوس مع طابتي وناريمان إلى الطاولة ذاتها، كانت طوال الطريق ترسم الافتراضات، لم تهضم فكرة أن يفرض عليها التعامل معه بودّ، وكأنه من أصدقائها المقربين، لازمها الحذر، سلمت عليهما بتثاقل، لكنهما لم يترك لها فرصة فرض مزاجها، قابلتها ناريمان بترحيب مبالغ فيه، وراح هو يسأل لطفي عن أحواله، ويدفعه إلى الحديث، الذي انطلق في البداية سمجا، مثقلا بالحذر، ثم عرف حركية مختلفة، فحال أن أتى ذكر الأسفار والحفلات، فرقعت ضحكات ناريمان، واندمجت مع خفة روح لطفي، وبعدها انضمت هي إلى الحديث.

اكتفت في البداية بابتسامات شاحبة، شحيحة، كانت ترسمها بين الفنية والأخرى في وجه طابتي، كلما اصطدمت نظراتها بنظراته، التي لم تُعتقها طيلة الجلسة، لكن حديثه عن الفيزياء النووية، توالى، وراح يشركها فيه بأسئلته، وملاحظاته عن تجاربهما المشتركة، وبث فيها متعة المناقشة، وانساقت

إليها من دون أن تشعر، فتحدّثوا عن مستجدّات المخابر الحديثة، وإشكاليات البحث الجامعي، وظروف العمل في مجال الكشف الطبي بالأشعة...وتردّد ذكر الأصدقاء المشتركين... بدا جليا أنه يتضور شغفا لأن يتبادل مع أحد مثل هذه الأحاديث، وشعر بالارتياح، لدرجة أن ساوره في لحظة من اللحظات سؤال مُربك: «ألم تكن غلطة!»

انتهت السهرة ولم تتوقف مخيلته عن تداول صورتها وهي تولي لطفي كامل اهتمامها، بنظراتها، وكلماتها، وحتى بصمتها... أصبح يختلق الذرائع للحديث إليها، تملّكه فضول غريب، أصبح يهتم بأدق تفاصيل تصرفاتها، وحياتها...وأصبحت هي، عكسه، تتجنبه، وكأنها تتطيّر منه، افتقدت حياتها بعدها الهدوء، دبت فيها الغيرة، والغيرة هي شراع المشاكل، وأصبح لطفي يثور بلا سبب، ويولها اهتماما خانقا، حتى ساعات العمل لم تعد تعيشها خالية من اتصالاته المتقاربة، وأسئلته المتكررة بشكل غير مريح: أين أنتِ؟ ومع من؟ وما هذا الصّوت؟ ولمن يكون؟ وكيف أمضيت وقتك؟...ساورتها الهواجس، وذهبت برأسها في جميع الإتجاهات، إلى أن جاءتها الإجابة عن سبب مزاجه الدّائم التّعكُّر.

- يكفي أبحاثا، كوني لبعض الوقت امرأة كبقية النساء، أشعريني بأنني لا أعيش مع روبوت.

- تعرف ظروف عملي منذ البداية، ووعدت بالتفهم، لا يمكنك أن تخذلني الآن، لم يعد التراجع ممكنا.

- لدينا الآن طفلة أولى بالرعاية والاهتمام، الأبحاث يمكن أن تتأجل، ولسنا بحاجة إلى راتبك.
- ليست مسألة اكتفاء مادي، وإلا لكنت أنا الآن من أغنى النساء، المسألة مسألة ضمير وواجب، يوجد آلاف الأطفال من سنها، في مختلف أنحاء العالم، معرّضون للخطر، وقد يكون في إمكاني وقايتهم.
- لست مخلّصة زمانك، الأرض تعجُّ بالمفكرين والباحثين، لكن ابنتك تحتاج إلى شخص واحد هو أمها.
- ما يمكنني فعله قد لا يتأتّى لغيري، لا يمكن أن أتراجع لمجرد إرضاء نزوة خطرت لك فجأة.
- أنت زوجتي التي يجب أن تحسب حساب راحتي، حتى ولو كُنت رئيسة العالم.

بدا عليها الاستياء من حديثه، قطّبت جبينها، وقالت:

- أهتم بك اهتماما لا تكفله ماكثات في البيوت.
- لا أنكر، لكن وفق أجندتك أنتِ، عليّ أن أراعي عودة زوجتي مُرهقة، متعبة...وأن أُراجع برنامج السيدة الباحثة لأخطط لرحلة، أو عشاء، أو زيارة، أو استقبال ضيوف...حتى أيام العطل تقضينها وراء الكمبيوتر أو بين الكتب، أنت تُعاقبيننا بأبحاثك! بتُّ أشكُّ أنني وابنتك فئران تجارب!

- ما تقوله غير صحيح.
- أثبتي عكسه، اتركي العمل بالمخبر، اكتفي بالتدريس بالجامعة، أو اختاري أي مهنة أخرى لا تتطلب كل هذا التوتر والانشغال.
- عُدنا! أخبرتك أكثر من مرة أن الموضوع لم يعد بيدي، لا أستطيع التراجع!
- أثبتي لي في الأقل أنك تتطلعين إلى تطوير عائلتك مثلما تتطلعين إلى تطوير أبحاثك.
- كيف؟
- أريد طفلا آخر.
- ما الذي تهذي به! كيف تُطاوعك نفسك على مساومتي! هل تعي كم تعبت لأصل إلى هنا! سهرت، وحلمت، وأملت...وجربت...وفشلت...وبكيت...وحرمت نفسي من الكثير من اللحظات السعيدة، والمريحة... ومن الريح... قالت له بصوت مختنق ثم كشفت عن رجلها، وغرغرت عيناها، وأضافت: تعذبت كثيرا في المستشفيات، وجلسات إعادة التأهيل...وأصبحت مُعاقة، كتبت يومها كلمات اعتبرتها بداية مشروع، وعاهدت نفسي أن تكون ميثاقي، وخشيت أن تنتهي رمادا، ركضت إليها لأنجدها من بين أنياب اللهب، ووقعت أنا الوقعة التي حرمتني من أن أركض، وأرقص...وأمارس الرياضة...

وأشعر بأنوثة مثل بقية الفتيات، أتعي معنى هذا؟ ثم إن إنجاب طفل في هذه المرحلة من التجارب فيه خطورة كبيرة، تعرف أنّه يجب عليّ أن أتبع حمية معينة لأجل تجنب أي تأثيرات للأشعة على جسمي، تماما مثلما فعلت في الحمل الأول، التعامل مع الأشعة ليس لعبة، يحتاج لاتخاذ إحتياطات دقيقة،.

لم يرد عليها،خرج مسرعا، ولم تشأ هي أن تطيل التفكير في كلماته، كانت مرهقة، ومنشغلة بأكثر من أمر، دخلت إلى غرفة ابنتها، قبلتها بعمق، وقالت:

- أتمنّى لك حياة مريحة، وهادئة، أن تكوني امرأة بسيطة! ففي المجتمعات التي يحكُمها صدى الجماجم، بقدر ما تزيد درجة فهمنا للأمور بقدر ما تقل درجة تفهُّم الغير لنا، ويتعاظمُ شقاؤنا، فصوتُ الجمجمة الملآنة نشاز، خاصة إذا كانت لامرأة.

***

مضت أيام، ولم تخرج فيها إلى العمل، حبست نفسها في غرفتها ولم تعد تكلم أحدا، عدا ابنتها، كانت تدير له ظهرها، ورغم ذلك استمر يطمئن عليها، ويعتذر منها بطريقته.

- عبّرينا يا (كوري)! على رأي رفيقة، سيأتي اليوم الذي تنسين فيه لغتنا وتتكلمين لغة اليرابيع، حاول أن

يستدرجها إلى الصلح، فأغمضت عينها وأسندت رأسها إلى المخدة، وقالت بصوت مسموع :

- اليرابيع وفيّة، لا تخلفُ وعْدها.

ابتسم بارتياح، فكت أخيرا شفتها، واستعادت نبرتها المتحدية، لم يكن يطمئن لذلك الانكسار الذي أصبحت عليه، فكّر أكثر من مرة في أن يسترضيها، لكن صورتها وهي تفر منه، إلى الحرية، والشهرة، تربط لسانه، وتؤلّبُ عليها صوتا يشجعه على موقفه: «هذا أفضل للجميع!» ويجعله يوشوش لها بثقة: «تيقّني أنني أفكّر في حياتنا معا.»

استدارت إليه وقالت له بنبرة جافة، توفر عليه المزيد من الكلام:

- أنا حامل.

- هذا هو النجاح الذي يجب أن يأخذ كل اهتمامك، لا شيء يضاهي متعة إنجاب طفل! صرخ صرخة مدوية.

- عندما يكون ثمرة رغبة.

ذكرته بأنه فرض عليها في تلك الليلة الأمر الواقع، بعد شجار عنيف بينهما، وألقى بالحبوب في المرحاض، لملم شفتيه وغطّى على تلميحاتها التي تتهمه بالهمجية والغصب بابتسامة متدنية، وأشارت عيناه إليها بمودة، تتضمن الاعتذار عن اتّهامها يومها بأن «تفكيرها لا يتعدى حدود نفسها، زوج يصنع واجهتها

الاجتماعية، وطفلة تدفع عنها تهمة عدم الرغبة في الانجاب، وعمل يسند ظهرها، وأبحاث تجعلها محط الإعجاب.» ولخص حاجته إليها، بقوله: « السّعادة الزوجية لا تتحقق بمجرّد ترسيم المشاعر، وإنما بتحقيق الراحة، وهو الشعور بالمتعة والأمان، فالأمان هي شريكة متفهّمة، مُتجاوبة، وأسرة متكاملة، والمتعة هي بذل المشاعر برؤنق، وبلا حسابات، كنت أُفضّل أن أبقى عازبا على أن أعيش حياة مربكة.»

حنت رأسها، وقالت له بصوت مهزوم:

- تحقّق لك ما تريد، دعني أتفرغ للأبحاث التي تعنيك بسلام.

- تصبحين أكثر جمالا حين تنفعلين، تتفكك الآلة!

لم تعلق على غزله المناور، ابتسمت، واحتفظت بما يدور في رأسها لنفسها.

ظهرت صبرينة!

مرت الدقائق والساعات، ولم تحضر صبرية، ولم أتمكن من الاتصال بها، دهمني القلق، استغربت أن تتخلف عن زيارتها المعتادة للمرضى، جربت الاتصال بزوجها فوجدت هاتفه بدوره مغلقا، اتصلت ببيت أهلها فانهمرت أمها بالبكاء وأخبرتني بأنها في المستشفى، وقع مني الهاتف، وأسرعت إليها، أرعبتني الجمل غير الرتيبة التي أطلقتها (...أجهضت...محاولة اغتيال... هو...هي...).

- هل حدث شيئًا نجهله؟
- ألم تذكُر لكِ شيء معينا عن علاقتها بزوجها؟
- ألم يلفت انتباهك شيء في تصرفاتها أو حديثها؟

تهاطلت عليّ أسئلة إخوتها، وكأن في يدي مفتاح نفسها، حتى أمي تطلّعت إليّ بنظرات تُحمّلني مسؤولية الجواب، وقفت كالصّنم، لم أعرف بماذا أجيبهم، انشغلت بمراجعة تفاصيل صداقتنا الطويلة، لعلّني أجد تفسيرا لِما حدث، ساد جو كئيب يضغط الأعصاب، ارتسمت على الوجوه ملامح الطامة، شعرت

بأن وجودي يزيده انكباسا، ثبَّتُّ نظري في الأرض، فانتبهت لكوني أرتدي ملابس النوم، وأنتعل خُفّا رجاليا وآخر نسائيا، أردتُ أن أنسحب، فأومأت لي أمي بأن أبقى، ولفتت انتباهي، بحركة من عينيها، لحالة أمها، التي كانت مُمددة على الكنبة وعيناها ساهمتان، وكأنها تحت تأثير مخدر، وحولها أبناؤها، الذين بدوا وكأن صفارة الإنذار انفجرت في آذانهم.

- أين الطفلة؟ انفرط صوت أخيها موسى بالسؤال.
- عند جدتها لأبيها، ردت أمه.
- سنغرق في سينات وجيمات الشرطة... وكلام الناس! الله أعلم إن كانت عملية انتحار أم محاولة قتل، أخشى أن يكون له علاقة بالأمر.

أجّج شكه في لطفي امتعاضهم الدفين من زواجها به، ارتسمت على وجه كمال ملامح مبهمة، تشبه غموض المغيب، وقال بنبرة يصعب التمييز إن كان يقصد بها الأسف أو إعلان الظّفر:

- كان يمكن أن تحظى بزواج أفضل، لكنها تجاهلت نصائحنا، ظنت نفسها عبقرية، وها هي تنتهي مُسمّمة، كأيّ كلبة جرباء.
- لا تزدني همّك! يكفي! صرخت أمه وحدجته بنظرات تتطيّر من كلامه.

أحسّ بأنه يعبث بجرحها، صمت قليلا ثم أردف بلهجة مُهادنة، تلبس مسوح الواعظ:

– ليس هذا وقت الحديث، المهم أن نطمئن عليها الآن.

هزّت رأسها بامتعاض، وأغمضت عينيها، ساد صمت دبق، إلى غاية أن ارتفع صوت والدهم في الرّواق، متوعدا:

– صبرينة ابنتي، من يريد أن يكسرها سأكسره! سأكسره... سأكسره...

ردّد إلى غاية أن خانه نفسه ثم أخذ يبكي بكاء رضيع تاه ثغره عن ثدي أمه، عاد بعد سنوات ليظل غائبا، اختلّ إدراكه، ولم يعد يميز الوجوه والأمكنة، أجلسه موسى على السرير وحاول أن يشرح له ما يجري، فنفر منه، فقامت ميمونة وأخذت بيده إلى غرفته، تحدثت إليه، إلى غاية أن هدأ، ثم أحضرت صينية الطعام وأخذت تُلقمه، وتقابل حركاته بثغر يتصنّع البسمة، ونظرات يملؤها الشعور بالقهر، والخِذلان، كانت تتوق لعودته، لعلّه يُفرج عن تلك الحلقة المفقودة من حياته، وحين عاد أصبح هو الحلقة المفقودة، لا يمكن أخذ ما يقوله على محمل الجد.

هزت أختها بهيجة رأسها بحسرة، وقالت توضّح لي بصوت مكلوم:

– اغتاظت أمي حين طلب منها أبي أن تسمي المولودة صبرينة، اشتمت رائحة امرأة، وعمدت إلى دهاء المرأة،

أسقطت حرف النون وأطلقت عليها اسم صبرية، وتحجت بوقوع خطأ مادي أثناء تسجيله، وهكذا تجنبت غضبه، وانتصفت لكرامتها، ولم يعد أحد سواه يناديها صبرينة، حتى جدتي تناسته مع مرور الوقت.

«ما هي سوى لعبة حروف ونقاط، حرف يجعل الاسم غربيا، وحرف يجعله شرقيا، ونقطة تجعله راقيا، ونقطة تجعله سافلا... والغرابة في أن تجسد لعبة الحروف قدرا، ويكون قدر صبرية الصبر...ويكون قدرنا معها مثل هذا الصبر القميء» قلت في نفسي وانتحيت بقلقي إلى الشرفة، لم يعجبني أن تأتي سيرة صبرينة، توجست خيفة أن يكون ذلك مؤشرًا إلى غياب صبرية التي أريدها أن تظل، كدت أختنق، ضاق بي المكان، في تلك الليلة، على وسع بيتهم، لم يكن هناك موضع مريح، فكل ركن فيه كان حزينا، ويهمس بالخسارة، نقلت بصري إلى جهة السماء، فبدت لي النجوم المنتشرة، في كل مكان، قلادة لؤلؤ على صدر زنجية، حدّقت إلى نجمة مضيئة، بدت قمراً صناعياً، وبقربها نجمة حقيقية، أكثر ضياءً، وتراءى لي فيها وجه صبرية، وهي باسمة مغتبطة، فخشيت أفولها، وأجهشت بالبكاء.

نزلت دمعتي على خدي أنا، لكنني سمعت الشهيق في الغرفة المقابلة، استغرَبتُ نفسي، هل حدثت معي لعبة برق ورعد؟ أطللت فيها، فوجدت يد ميمونة على فمها، تستعين بها على كبح صوتها، وكأنها قرأت أفكاري، أو لعلّها بكت لأن والدها طلب منها

أن تأتيه بدفترها المدرسي، فلم يهتم يوما لأمر نجاحها وفشلها في الدراسة، لم يكن يعنيه من بينهم جميعا سوى نتائج صبرية، كان الذكور مُعدّين سلفا لممارسة التجارة، ولم تكن نتائجها هي تشعره بالفخر، أما صبرية فكان يتباهى بها، ويصفها لأصدقائه بأنها نابغة، أدركت ذلك عندما فاجأتهم ذات يوم صبرينة الفرنسية بالزيارة، قالت لصبرية بنبرة تكشف أنها كانت تتوق لرؤيتها: «أنت صبرينة! صح! شاهدت فيديو عن حفلة تخرّجك، كنت رائعة!» ثم دنت منها ووشوشت لها بأنها تفضل أن تتحدث إليها على انفراد، بشكل أثار حفيظة إخوتها، وتبادلوا نظرات استهجان.

– حديثك سيكون إلي، قبلنا باستقبالك لأجل أبي، عدا ذلك اسألي نفسك ماذا فعلت به ليعود هكذا، قال لها موسى محذرا.

نظرت إليه نظرات جافة، وقالت:

– جئت من أجل الملهى الليلي، أنا ومحمود شريكان فيه كما تعلم، أريد أن أشتري نصيبه.

– تقصدين المقهى، نحن هنا نسميه مقهى، تنحنح موسى وقال بامتعاض.

امتقع وجهه، فكر في كل ما قد يصلح مبررا للرد على سؤال وجيه: «هل كان يعمل في مصنع سيارات أم يدير ملهى ليليا؟» دارت رأسه بجميع الاحتمالات، ولم يخطر بباله أن فكرهن كان

مشغولا بغير ما يشغله هو، وضعن صبرينة تحت مجهرهن، ورحن يتقفّين كل كلمة أو إيماءة تصدر عنها،

ظهرت أخيرا الشبح المتخفي وراء اسم، بملامحها الشقراء، وضحكتها الرنانة، وصوتها الواثق، ودلالها المُفرَز، كان لملامح صبرية شبه كبير بملامح صبرينة، لكن الصلة بدت بعيدة بينها وبين شخصيتها الواثقة، المقتحمة، بدا الفرق واضحا للعيان عندما تواجهت النسخة والأصل، من دون أن تعرف أي منهما من هي الأصل في نظر محمود، وحتى ولو بدت صبرينة الفرنسية أكثر وثوقا بمكانتها، كانت تكلم صبرينة المنقوصة النون وكأنها خاصّتها، أو تحمل شيئا مميزا لها، اختزنت نظراتها أشياء كثيرة، وربما أسرار، لكن موسى لم يمنحها فرصة قول الكثير، انفرد بالحديث إليها هو وإخوته، ثم غادرت وتركت عش الغموض على فقصه القديم، بل وزادت عليه تساؤلات جديدة عن حقيقة ما دار بينها وبين موسى.

ضاعت فرصتهن في أن يعرفن حقيقة نشاط والدهن في ذلك المحل، ومصير نصيبه بعدها، مثلما ضاعت فرصتهن في أن يعرفن طبيعة علاقتها بها، وهو أكثر ما حز في أنفسهن، بدت أكثر شخص يعرفه ويفهمه، نضحت بذلك تلميحاتها، وطريقة حديثها، بشكل أجّج غضب أمهن، لكنها بدل أن تلوم موسى على تعمده الحفاظ على الغموض، انفجرت باللوم في وجه صبرية لأنها سمحت لها بأن تناديها صبرينة، وراحت تتمتم بالشتائم بصوت مقبور، واتّقد في

عينيها جمر سنوات، ثم خمد مجرد أن رأت محمود يدور حول نفسه، يريد أن يقضي حاجته، ولا يعرف كيف يتصرف، كطفل فطيم.

أصبح في عالم مختلف، لا توحي به هيئته إطلاقا، تجاوز الخامسة والستين ولم ينزل طوله عن المتر والثمانين، ونزلت كتلته اللحمية قليلا عن التسعين، واستمرت نظراته تنضح بالهيبة، لدرجة توحي لهم أحيانا بأنه يتظاهر بالنسيان ليمتحنهم، ودت ميمونة لو ترتمي في أحضانه ولم تجرؤ، أوقفتها تلك النظرات التي كانت دائما تصنع المسافات بينه وبينهم، وعكس ذلك تثير مخاوف أمها من وقوعها في نفس النساء، رغم أنها كانت جميلة، وربما أجمل نساء العائلة على الاطلاق، اقتطفها وردة من بستان الدّلال، مثلما كانت تقول حماتها، عندما تكون رائقة، أو تودّ أن تكفر عن إهانة ألحقتها بها.

***

عاد محمود يلح على ميمونة:

– هات كشف نقاطك!

تنهدت وقالت في نفسها: «يا ليتني بقيت طفلة! أدفع ما بقي من عمري لأعود طفلة!» ثم قالت له بنبرة تحمل الرغبة في أن يستوعب الأشواط التي قطعتها في حياتها: «كبرت يا بابا، لدي أطفال في المدرسة، ولديهم كشوفات نقاط.»

– تزوّجتِ، يا صبرينة! متى؟!

شعرت بالاستياء، استرسل لسانها، من دون أن يحدد داخلها إن كانت تقصد أختها أم شريكته الأوروبية: «يبدو أنك لا تحتفظ في شعورك الباطن إلا بذكراها!»

نظر إليها نظرات مرتابة، بدا متوجسا منها، فشعرت بأنه غير مرتاح لانفعالاتها، ومددت يدها على كتفه ودعكتها برفق حتى هدأ، وقالت:

– تعال، لترتاح، هذا وقت النوم.

ساعدته على تنظيف أسنانه، وأعطته الدواء، ثم استلقت على السرير المقابل، وبقيت أنا مع والدتها بعد أن انصرف إخوتها، وغادرت بهيجة من أجل أن تتفقد أولادها، راحت تتمتم بصوت خافت: «اللهم لا تفجعني فيها! اللهم اجعل عمرها أطول من عمري!» كادت الصدمة تشل حركتها.

– ارتاحي قليلا، الصباح قريب، قلت لها مواسية.

أمضيت الليلة عندهم، لم تطاوعني نفسي أن أتركهم في مثل ذلك الظرف، ولا أن أبقى في مكان بعيد عن أخبارها، لم يعرف النوم طريقه إلي، بدا الجزء الأخير من الليل طويلا، وكأنه الليل كله، ووصل الصَّباح إلي متأخراً عن المعتاد، قفزت من السرير وأطللت من ثقب النافذة على فضاء شاسع لا حدود له، تتداخل فيه ألوان عدة، تعطي الشعور بأن جمرات ما تتقد

الهُوينى تحت أديم السّماء، حررت شفتي عبر الشق الصغير: «الدنيا أوسع من مطلات أحلامنا، ليس بأركانها وسمائها وجبالها، بل بهمومها، والمفارقة إنّ همومنا رغم كبرها، ووطيسها، تنطمر تحت قرميد المنازل، وتتبخر مع أبخرة المداخن، وتتوارى في الضجيج، لا أثر لها في سوى داخل من اكتوى بجمرها.»

محفظة بلا أقفال

فتحت ميمونة خزانة صبرية ووقفت أمامها لحظة، لفتت انتباهي تلك المحفظة القديمة، وخيّل إليّ وكأنها كانت تطمئن عليها في غيابها، تركت بابها مفتوحا، لعلها تعمدت أن توفر لها منفذا أوسع للهواء، فلم تكن محفظة عادية، لو قُدِّرَ لها أن تنطق لكانت أفضل من يروي حكاية تنبعث من مكان بعيد، من فراغات هذا الكون، الذي يشق عليه أن يحتضن الإنسان محفظة لدرجة أن تصبح وسطه الطبيعي الذي يتنفس فيه، تقدمت نحوها عندما غادرت، وثبّتُ نظري عليها، تملكتني الرغبة في أن أكتشف مكنونها، لم يكن بها قفل، ولم يعد بيني وبينها سوى ارتماءة أصابع، لكنني لم أجرؤ على لمسها، زاد توتّري، وتشنّجت أطرافي، وقفت كالصنم، مشبوبة الشعور، معلقة بين الرغبة والرغبة، يملؤني الخوف والقلق، دقّ قلبي بسرعة مرهقة، فتراجعت إلى الشرفة أنشد المزيد من الاكسجين، بدا المكان موحشا، ودبِقا، كشِباك العنكبوت.

شعرت بقشعريرة، انتابني إحساس غريب، تراءى لي أنها تتململ بعبارات نفور، وتحتفظ لي بالضغينة، وخشيت

انتقامها، فلم أكن أراها بعين صبرية، حذوت حذوها في أشياء كثيرة، لأُثبت جدارتي، لكن ليس لدرجة أن ألقي بنفسي في النار لأجل محفظة، لكن هي فعلتها، عرّضت نفسها لأجلها للأذى أكثر من مرة...عنّفها موسى بسببها أكثر من مرة، كان يرى في شغفها بها طموحا غير معتاد، وفي عرفه، الطموح الأنثوي فيه شبهة المفاسد، يجب أن تكون له حدود معلومة، كما إن أعنف شجاراتها مع ربيع نشبت بسببها، كان يدخل لتوّه مرحلة المراهقة، ويريد أن يثبت لإخوته أنه يستحق أن يعتمدوا عليه في أمورهم، ووجد في محفظتها متنفسا لممارسة سلطة ذكورية خانقة، كان يحلو له أن يعبث بحشوها، وكأنه مفتش ضرائب يتقفى أثر مخالفة، وهو أكثر ما كان يثير أعصابها، ويخرجها عن هدوئها المعتاد، اكتشفت رغبته المناكفة نقطة ضعفها، وأصبح يتمادى في ممارسة عليها لعبة الآمر الناهي.

- إن خرجت من البيت سأكسر لك رجلك، قال لها ذات مساء متوعدا، بعد شجار معها حول المحفظة.

لم تعجبه نبرة التحدي التي واجهته بها، أصرّ على مضايقتها، استفاق مبكرا، وحاول أن يمنعها من الخروج، فوصل صراخهما لكل من في البيت، ولم يهبوا لفض الشجار، فتراجعت إلى الوراء وجلست على الأرض، وراحت تبكي بحرقة، أدركت أنه ما من مخرج لها من سطوة طيشه سوى أن ينصرف إلى مدرسته، أو يتكرّم أحد أصحاب السلطة العائلية ويصدر أمرا مخالفا، لكنه لم يكتف

بنكش شعرها، ونثره جِزّات في أرجاء البيت، ولا بترك آثار ركلاته، ولكماته، على كامل جسدها، ولا بتلك الشتائم والكلمات البذيئة التي أمطرها بها، أجهز على محفظتها واستخرج باطنها، وراح يمزق ما تقع يده عليه، وكأنه يُحمّلها مسؤولية تحدّيها له، لم ينقذها من يده سوى جدتها حمامة، التي استاءت من مبالغته في إعلاء صوته، ولعب دور ديك الخم، طارده لسانها بالشتائم، وعصاها بالتهديد، إلى غاية باب الخروج.

كنت أنتظرها عند الباب لنذهب إلى الثانوية، كالعادة، لملمت دموعها، وأدواتها، وخرجت إليّ بسحنة ساخطة على كل شيء، حتى على الهواء، ظلت حانقة، قانطة، طوال الطريق، لم تنبس بكلمة، ولولا أنني سمعت بعض ما دار، لما كنت علمت بما جرى، فلم تكن صبرية بذلك الكتاب الذي يسهل قراءته، كان لانفعالاتها طلاسم يصعب فكها، قد تبدو مرحة ومتجاوبة، وداخلها مُكدر، وقد تبدو كئيبة ومهمومة، بينما داخلها رائق، هي بطبعها أنوفة، ومنكفئة على أحاسيسها، تأبى أن تكشف عن وجعها بسهولة، لعلها تجد في ذلك ضعفا، أو شيئًا ينتقص من شخصها، المهم أنه الطّبع الذي عهدتها عليه، منذ وعيت في هذه الدنيا.

افترقنا في ساحة المدرسة على صمت، كنت أعرف أنها لا تحب أن يكسر أحد صمتها حين تغضب، لوّحت لها بيدي مودعة، واتّجهت إلى قسمي، وتجنبت مجالستها في

وقت الغداء، لم أشأ أن تستقرئ في عيني ما سمعته عند الباب، وتتألم، وهو ما ندمت عليه بعد لحظات، لربما كنت استطعتُ أن أمنعها من الصعود إلى الطابق العلوي، أو أن أثير انتباه المراقبين في الوقت المناسب، كنا جميعا في المطعم عندما انفجرت مدفئة أحد الأقسام، وتسببت في نشوب حريق مهول، في الطابق العلوي، فقام المعلمون والمراقبون بحشدنا أمام المدخل الرئيسي لحين قدوم أوليائنا... ارتعدت قلوبنا الصغيرة...وارتفعت الصرخات... وتواتر بكاؤنا، مع ارتفاع صفارة سيارة المطافئ، وهي في طريقها إلينا... ارتبكت الأمور... واختلطت...ولم ينتبه أحد لتسلل صبرية إلى قسمها، إلا حين دوى انفجار آخر، وصرخ الجميع دفعة واحدة:

– انتبهي...

اهتز المبنى تحت قدميها، فارتبكت ووقعت، تدحرجت مع محفظتها التي غامرت باسترجاعها، إلى غاية آخر درج، وانقلبت مزهرية الفخار الكبيرة، واحتبست رجلها، فهرع إليها الحارس مع بعض المعلمين، وتم نقلها إلى المستشفى، وكأن السماء انفتحت في ذلك اليوم للأهواء، تحققت رغبة ربيع، ولم تعرف قدمها الشارع لمدة، وتحققت رغبتها هي، وتغيرت معاملته لها، لم يعد يهتم لأمر محفظتها كالسابق، لكن شيء غير مرغوب فيه عرج مع تلك الرغبات، وخمد معه اهتمامها بتحركات يده

الثعلبية في محفظتها، أصبحت نفسها مؤهلة لتقبل أي عبث، بعد أن عبث الحادث بخطواتها، وخضعت لأكثر من عملية جراحية، ولم تعد مثل السابق، أصبحت تعرج في مشيتها، وتميل بكتفها قليلا نحو اليمين، واستفادت ميمونة من وضع جديد، وزال احتقانها عليها، بل أصبحت أحيانا تلوم نفسها لأجل تلك اللحظات التي أضمرت لها فيها الغيرة، أصبحت تراها ربة نعمتها، وأخاها جلادا يستحق العقاب، وأمها خائنة أمومة، لأنها كثيرا ما كانت تتقوقع في وضعية المسكينة المنقادة، وتنازلت عن واجب حمايتهن، أسرّت لي ذات يوم في لحظة انفعال: « كيف تُحسن حفظنا في ظلمات بطنها ولا تُحسن حفظنا في نور الدنيا؟ إلى متى تصمت صمت الجليد؟» قلت لها منبهة: « ربما تلك هي طريقتها في حمايتكم، الدفء لا يُعلن عن نفسه بالزمهرير والرعد والبرق، هذه إعلانات البرد.»

الصدمة كانت قوية، أخذ الجميع ينتقد الجميع، وكل واحد يستحضر للآخر علاقة سببية بالحادث، استقلّ محمود أول طائرة وعاد، امتلأت نظراته بالحزن، وطفت على ملامحه تعابير الخسارة، كانت تلك هي المرة الأولى التي يثور فيها ضد تصرف يحصل ضد بناته، عنّف الجميع، أثار زوبعة كبيرة في المدرسة وقدّم شكوى بالإهمال ضد مسيرها، وهاجت ثيران غضبه على كل من في البيت، أفلتت منها أمه، لكنه ظل لفترة يتجنب الحديث إليها، كاد يجن، راح يضرب الحيطان بيده ورأسه، ويصرخ، من دون أن يحدد غريمه:

– كيف تكسرون ابنتي وأنا حي! كيف تُشوّهون ابنتي وأنا حي! كلاب...ستدفعون الثمن!

تغيرت معاملته بعدها لبناته، واختلفت توصياته، أصبح عكس السابق يحذر أولاده من مغبة أن يقدموا على ما يؤذي أخواتهم، وكانت جدتهم قد أنهكتها الشيخوخة، ولم تعد أمها تلتزم الصمت المهادن، أصبحت تخشى من أن ترتسم مع كل حرف تبتلعه في صدرها، ملامح مصيبة، اجتاحها الشعور بالذنب، أحست أن صبرية صعدت إلى قاعة الدرس مدفوعة بما جرى لمحفظتها على يد ربيع، تحت هوس الشعور بالاندهاس، وكأنها أرادت أن تنقذ إحساسها بوجودها بإنقاذ محفظتها، انغرس في أمها الخوف من تفاقم البدايات البسيطة، بعد أن ساهم شجار بسيط في حدوث ضرر جسيم، خسرت عامها الدراسي، ولم تحصل على البكالوريا إلا في العام الموالي، وفوق كل ذلك، حصل العطب الذي لم يمكن إصلاحه.

انسحق جزء من عظم رسغها تحت ثقل المزهرية، ولم يسهل جبره، أخذها والدها إلى الخارج، وخضعت لعمليتين جراحيتين في فرنسا، عدا العملية الأولى، التي أجريت لها على وجه الاستعجال، ولم تستعد مشيتها الطبيعية، خفّت فحسب وطأة الألم، وقلّت درجة العرج، قللت مهارة الأطباء من حجم الضرر العضوي، لكن ما انكسر في نفسها ظل عميقا، أصبحت ترى نفسها مجرد فتاة مكسورة، مستباحة التطلعات، إذا جاءت سيرة الأبحاث، تعود إلى ذاكرتها صورة محفظتها وهي تتمزق ولا

تقدر على حمايتها، وإذا جاءت سيرة المستقبل والارتباط، تفكر بتلك الندبة في أسفل ساقها، وتراها كبيرة ومشوهة وكأنها تحت ميكروسكوب، أصبحت نفسها مرهفة، وشديدة الحساسية، اخترقتها جملة آلية كجملة «العاقبة لك»، التي تكررت على شفاه المدعوين لعرس ميمونة، كسكين، شعرت بأنهم يعبثون بجرحها، ويريدون أن يعتصروا قيحه، لم ترد على أي منها ولو بإيماءة، ومجرد أن عادت إلى البيت، احتضنت محفظتها وخمدت في فراشها، وكأنها تلتف على جرح عميق.

***

جمدت حركتي، وتسارعت حركة الأفكار في رأسي، شعرت ببلادة الإنسان وحرارة الأشياء، ففي غرفتنا الصغيرة، قد تجتمع عوالم كبيرة، وتتغيّر خرائط الكون، وتضاريسه...ومناخ الأرض، ويجتاحنا شخص آخر، غير ذلك الذي يسكننا! يُرهف السمع، ويُصغي إلى أحاديث مِخدَّتِه، وسريره، وخزانته، وأدراجه... ويرسم بها وجه عالم مختلف!

أهم الدروب التي مشيتها في حياتي، عبّدتها أحاديث غرفتي، بعضها عَبَرتُها كالمستلقي على مخاوفه، وبعضها الآخر كمن يمشي على أشواكه، وأخرى كمن يغامر بالتحليق ما بين إفرازات المداخن.

كانت ظلال الغرفة تفتتح في رأسي مسالك عدة، فأحتار في أيّ جبٍّ ألقي بقطعةٍ من نفسي، ولا أدري بأي قطعةٍ من

نفسي أفتدي نفسي، يشتد شقائي حين أستلقي على حطام حلم، وأستشعر صقيعها يسري في روحي... فأجلد نفسي بالاعترافات، لأُرهقها، وأجعلها تستكين إلى راحة النوم، فيخذلني النعاس ولا يأتي، ويُحرّض الأرق أشباح الأفكار على قلمي، لتلاعبه بأي شكل من الأشكال، وتراوده عن نفسه، بأبجدية لاسعة، مقرورة، ولغةٍ موحشةٍ كخرائب الفلوات المهجورة، تبحث لها عن مكان بين دفاتري، من دون أن تهتم إن كانت توجعني بمضغ الأسطر.

لعلها تفترض أنني تعوّدت على الوجع، وهذا صحيح، تعوّدت عليه، لكن هذا لا يعني أنه لم يعد يأخذ نصيبه مني، ولكن أصبحت فحسب أعرف كيف أصنف وقعه، مثلما أصبحت أعرف أكثر وقع الأشياء في حياتي.

أصبحتُ أعرف معنى أن يُريق الإنسان حبره للهباء، مثله كمثل من يريق دمه للرياح.

أصبحتُ أعرف معنى أن يعيش الإنسان بين تضاريس الأنفس، مثله كمثل من يلقي بنفسه بين دفتي الطاحونة.

أصبحت أعي أكثر معنى أن تفتضّ فكرة جوفه، وتسكنه، ومعنى أن يحمله شيء، ويحفظه شيء، في الوقت الذي يسقطه العباد ويُفشونه.

تغيّرت رؤيتي للصمت، وللجماد...والأشياء...أصبحت أعرف كيف تكبر الأشياء الصغيرة داخل الإنسان...وتملؤه... وتنقله إلى فضاء آخر... وتضعه على مدار لم يخطر يوما بباله.

لذلك، تفاعلت مع محفظة صبرية بروح مختلفة، رأيتها تكبر في تلك اللحظات، تكبر... وتكبر...وتنتفخ...وتتمدّد، وتنفجر ببوح يقذف بي خارج المكان... وقررت أن أُهادنها، قلت لها في نفسي: «سلام أيتها الجلدة المحظوظة، أنت ترقدين هنا آمنة، مُعزّزة مكرمة، وصبرية ترقد في المستشفى، ولا أستبعد أن تكون هذه المرة أيضا بسببك، ولست أستغرب كالسابق، أصبحت أعي معنى أن تحمل الأشياء روحا...ولمَ قد يموت الإنسان من أجل محفظة، وخاطرة...وجرّة قلم.»

شعرت بالراحة لأنني وشوشت لها باعترافي، ولو من بعيد، زالت عقبة اتفاقنا أنا وصبرية حول مكانتها في الغرفة، الزمن كفيل بأن يُغيّر تضاريس الوجود، فما بالك بالأنفس والسرائر، نحن نمشي على كوكب يدور حول نفسه، وحول الشمس، وفي مجرة كبيرة، والله أعلم كم مجرة يلتف حولها، وكأن قدرنا الدّوخان! لابد لنا من كم هزّة، وكم دورة، لنعي حقيقة مرتكزات أنفسنا، لذلك لم أستغرب أن تتلاشى ارتسامات الشعور بالانسحاق أمام تميز الآخر، التي كنت ألمحها في عيني ميمونة، بين الفينة والأخرى، تُجاه صبرية، أظنها أدركت أخيرا أن ميزات الإنسان، من ذكاء، وجمال، وطيبة...ليست بالضرورة حظا وافرا، قد تجلب له القلق، والأرق...وتكون قلة حظ.

وقد تنسف أمزجة البشر ما لا تقدر عليه أعتى الأعاصير، قد تفلح العواصف والأعاصير في اقتلاع الأبنية والأشجار والنباتات

المنتشرة في الطبيعة، لكنها لا تغطس يدها في القلوب، لا تقدر على اجتثاث زرعه، لكننا نحن البشر نفعل، نستطيع أن نقتلع فرحة بعضنا بعض، بنفس بسيط، أو بمجرد تكشيرة، هكذا أوجدتنا الطبيعة، ضُعفنا في أضعف الأشياء، شعرت بذلك في زفاف صبرية، أحسست بأن فرحتها خابية، لأن أغلب المحيطين بها مكدرون، لأسباب غير مفهومة، لم يُعجبهم زواجها بلطفي، كانوا يفضلون شخصا يعرفونه، ينطبق على شكل قالب الصهر المرتسم في قناعاتهم،

انتقل إليها قلقهم، كانت تتظاهر بالثقة والغبطة وهي تخطو خطوات حائرة، وخائفة، لم تكن تعرف عن لطفي الكثير، أخذت فحسب بإحساسها قبل الزواج، ولم يخب بعده، كان يكبرها ببضع سنوات، وبتجارب كثيرة، تخوله أن يُحسن ترميم فجوات احتياجها، ويمنحها دفء لم تعهده يوما في حياتها، وجدت فيه حضن الوالد، وتفهم الصديق، وسند العائلة، لكن دفأه لم يبلغ في نفسها حجم دفء كتبها، التي لم تخذلها الكتب يوما، ولو للحظة، ظلت تفهمها، من دون أن تحتاج إلى الكلام، وتمدُّها بالمواساة، والمؤازرة، والتشجيع، والرّفقة، والأمل... والكثير مما تنشده في وجود الآخرين في حياتها.

ألقيت نظرة بعيدة أخرى إلى محفظتها، وقلت: «كيف يفر الإنسان إلى حضن الورق وهو محاط بالكثير من الناس؟ لماذا يتناسل الإنسان، ويكوّن الرفقة، والصداقات، والأزواج،

والأسر، والقبائل، والأمم...وكل أنواع التجمعات، إذا ظل داخله وحيدا؟» تساؤل مربك، ولا يمكنني أن ألوم فيه أحدا، لأنني كذلك كنت لها نفسا باردا، حتى ولو ظنته دافئا... نفس غرائبي، كنت أجدها أقرب مخلوقة إلى نفسي، رفيقتي منذ فتحت عيني في هذه الدنيا، وصديقتي، وموضع ثقتي... ولكنها في الوقت نفسه غريمتي، التي تفتكّ مني فرصة الريادة في المدرسة، وفرصة التألق في عائلتي، التي كانت تراها نموذجا يجب أن أحتذي به، والمضحك في الأمر هو أنني كنت أمتعض من هذه الفكرة، وأعتبر نفسي نموذجا مختلفا، إلى غاية أن وعيت ذات يوم حقيقة أنها كانت تمثالي النموذجي، بارومتر تقدمي وتأخري.

هو اعتراف ثقيل، يصعب أن يجرجره اللسان، لكنني الآن مستعدة للمجاهرة به، من دون أن أخشى ردّ فعل الآخرين، وخاصة هي، فحريّ أن يؤلمني أنا، لا هي، لأنني أوقعت نفسي في مصيدة جُغرافيّتها، وتضاريس اعتدادها بالوجود، عندما جعلتها مقياس نجاحي وفشلي، صنعت قيدي، هو قدرات شخص عينه، فلقلة تبصري اعتبرت نفسي سبقتها إلى إنجاز، حين تزوّجتُ، وأنجبتُ...وتوظّفتُ قبلها، بينما اكتفت هي بأن باركت لي، واقتطعت لنفسها متعة مشاركتي فرحتي، لم تكن تحشر إحساسها بأطوالٍ، وأوزانٍ عينها، كانت تطلق بصرها نحو الأفق بحرية، وتُجرّبُ استطاعتها.

كانت هذه التفاصيل تبدو لي في وقت سابق واهية، كنت أعتبرها، في أقصى تقدير، حكاية محفظة أنثوية، تقاوم تراكمات

ونبع ماء صافٍ، تماما مثلما هي حياتنا، وأمزجتنا...ومصائرنا... جنون...وأمضاها باسم «جنون»، وكأنه يوثّق غرائبية ما نعيشه! فنحن نظل نبني، ونُعلي، ونطمح إلى إعلاء الأسقف...ثم نتوق إلى بساطة مُرج أخضر، سقفه السماء، ويسوّره الهواء...نتراجع إلى اللوحة الأولى للوجود، وكأننا نرتهب من لوحاتنا الجديدة التي تنشر خرائب أنفسنا القديمة.

***

لم يغمض لي جفن ليلتها، جالت بي ذاكرتي بتفاصيل كثيرة، عاشتها صبرية خلال سنواتها الست والثلاثين، حتى تلك الأشهر التي سبقتني فيها بالخروج إلى الدنيا، ولم تستطع مخيلتي التخلص من رؤيتها يربوعا يتخبط في بطن أمه، يأخذ عن طريق المشيمة زخات من متاعب الحياة، لبست معطفي وخرجت، أقصد المستشفى، تناثرت عليّ قطرات المياه المتمسكة بأوراق الشجر منذ ليلة أمس، وأذهبت شعوري بالأرق، بل عبّأت حدسي بنشوة غريبة، اتصلت على أساسها بزميلتي في الجريدة، أستطلع عن الأخبار.

- قولي صباح الخير أولا، ردت تنبهني.
- أمضيت ليلة بيضاء، اعذريني.
- أفهمك، أعرف ماذا تعني لك صبرية عمران، ما من جديد، عدا بعض الأخبار المنتشرة هنا وهناك، تتحدث عن منع الزيارة عنها لأن حالتها حرجة.

- سأغيب اليوم أيضا، غطي صفحتي بمعرفتك.
- لا تهتمي، سأقوم باللازم.

شغّلت المحرك وانطلقت، اختطفت نظرة إلى أذناب الورق التي دسستُها في الحقيبة على عجل، وكأنني أخشى أن أتركها ورائي على الطاولة، كتبت وحذفت، وشطبت، ومزقت ما مزقت...وكان نصيبي من تلك المعارك الدائرة بين قلمي ونفسي تلك الأوراق المنكمشة، التي لم أكن أملك الجرأة على إعادة قراءتها، لأنّها مُضرّجة بمخاوف رافقتني طيلة الطريق، ذهبت باكرا، ومع ذلك سبقني الكثيرون، استقبلني بعض الزملاء بالقُبَل، والأسئلة الثقيلة على القلب، فألقيت التحية على البعض وتجاهلت الآخر، أدركتُ مرارة أن يتحوّل المرء هدفا إعلاميا وهو يعيش أسوأ اللحظات.

انضممت إلى عائلة صبرية ولزمت الصمت، لولا حركة عيني لبدوت صنما، اكتظت غرفة الانتظار بإخوتها وأخواتها...وأمها... والأصدقاء...ورجال الأمن، دخل محقق الشرطة، وجال بنظره في المكان ثم كلم الشخص الذي كان يرافقه بصوت هامس وانصرف، فهمنا من طريقة انتشار رجال الأمن بعدها أنه أمره بتشديد الحراسة، لمحت طابتي وهو يهرول نحو مكتب رئيس المصلحة، والقلق يعتصر ملامحه، لم يمهله لطفي فرصة أن يصل إلى مقصده، صرخ في وجهه، وطرده، قائلا:

- إن ثبت تورطك، ستدفع الثمن غاليا!

تبادل إخوتها نظرات مصدومة، ضاقت بهم الدنيا، وانقبضت أنفاسهم، كادوا يُغمى عليهم، لعلهم ربطوا بين واقعة الإجهاض وبين كون طابتي مديرها في العمل، وتوجّسوا خيفة أن يكون للأمر علاقة بما يمس بسمعتهم، قرر موسى بعد تهامس مع الباقين أن يقترب من لطفي ويسأله، فوضع بين يديه ورقة، وقال له بصوت خافت:

– أظن أن هذه المسوّدة وصلت إلى ذلك القذر.

قرأها موسى في سره بملامح كالحة:

« أستاذي وزميلي الدكتور طابتي،

لن أجد أكثر من هذين الوصفين لأخاطبك اليوم، رغم أنني كنت ذات مرة أجد لك قاموسا من العبارات المميزة.

سمعت حديثك مع البروفيسور عماد وأنت تصفني بالسلبية تارة، وبالخابية الطموح تارة، ووددت لو كانت لي الجرأة الكافية لأقتحم عليك مصانعك الذاتية، حيث تُصنّفُ الآلهة والبشر، وأواجهكَ بالسؤال: هل أنت إيجابي وقوي بما يكفي؟! هل تعرف حقا نفسك لتُقيّم الآخرين؟ هل جرّبتَ يوما أن تُخرس أصوات نفسك، التي تزُجُّ بك إلى الاغراءات، بكل ألوانها، بإيمانك بقضية إنسان؟

لا تجبني، احتفظ بالإجابة لنفسك، حتى ولو تحلّيت بالشجاعة الكافية لترد علي لا يمكنني أن أسمعك الآن، على

قدر ما كان يعنيني أن أسمعك ذات يوم، واجه فقط داخلك، واصدُق نفسك.

أنا عن نفسي، واجهت الواقع بشجاعة، وأدركت أنّ المخلوق الوحيد الذي لا يمكن أن يُساوِم الخلق على سرّه هو الموت، لا يمكنهم أن يَغشُّوا فيه، مثلما يغُشُّون في الامتحانات، ولا يُمكنهم أن يرصدوا له جواسيس يأتونهم به، ولا أن يدفعوا ثمنا لرسمه... الموت لا يعترف بسرقة الفُرص، ولا بتقديمها وتأخيرها، لكلِّ فرصة اكتشاف سره، ووفق دور محتوم، ومن أراد أن يعرفه، عليه أن يدفع حياته ثمنا، فالموت هو القضية العادلة التي لا تستثني فقيرا، ولا غنيا، ولا سعيدا، ولا شقيا... لا عالما.. ولا جاهلا... عداه جرّبت... وحاربت...وحوربت على جميع الجبهات، وقُهرت، وخُذلت...حتى من الأقربين، وها أنا ذا ابتعدت، وتركت أحد وسائل المعركة بين يديك.

ستجد في هذا الظرف قرصا مضغوطا يحتوي على تفاصيل مشروع اليرابيع، بكل التركيبات الكيميائة، والبناءات الهندسية للغاز المطهر، ومعها مشروع ترميم الجينات...أترك حشو جمجمتي لضميرك، تصرّف فيه كما تشاء، أتلفه، انسبه لنفسك... ذاك شأنك...هاكَ عصارة دموعي ودمائي، آخر نفس لي في الحياة، لم يعد لي رجاء في النجاح بعد أن فشلت في كل شيء، حتى فيما نجحت فيه أي امرأة بسيطة، أن أسعد زوجا.»

تدفقت الدماء غزيرة إلى رأس أخيها كمال، انتحى بلطفي جانبا، وسأله عن سبب تلك الرسالة.

– الأمور واضحة، كان ينوي سرقة أبحاثها، أكاد أجزم بأنه سعى لتصفيتها.

انفعل كمال، ورمق طابتي بنظرات شزراء، وأخذ ينتقل من ركن إلى ركن، بأعصاب فائرة، تنبئ بأن المكان سيتحول حلبة صراع، دخلت رفيقة وزادت الجوّ توترا، راحت تضرب صدرها، وتقول: «آه، يا العزيزة، لم تنالي ما تستحقين! حتى الزوج بليّة!» ثم التفتت إليه، وقالت: «هاه. وكأنك ستُنجب المهدي المنتظر! جعلتها تحبل بالقوة، وحاولت أن تجعلها تُسقط بالقوة، وها هي سقطت كلّيا...فكّر فيما ستقوله لابنتك يوما إن حدث لها مكروه!»

وثب إخوتها دفعة واحدة، واقتربوا منها، ليتبينوا حقيقة ما كانت تقوله، فدفعناها أنا ونورة إلى خارج القاعة، ونهرناها: « هل يجب أن تذكري خلافها الخاص مع زوجها أمام الملأ؟ المكان يعجّ برجال الإعلام ورجال الأمن. أتريدين توريطه يا مجنونة؟» أخذت نفسا عميقا، وأطردت بصوت خافت: « أرادها لطفي أن تجهض بعد أن أخبرها الطبيب باحتمال أن يخرج الجنين إلى الحياة بتشوهات خلقية، ثارت ثائرته، واتهمها بأن أبحاثها تدمر حياة أسرتها، وقام بتمزيق ما وقعت عليه يده منها، وإتلاف السيديهات...وتكسير المكتب... واستنجد بنا أنا وعلي في منتصف الليل، كان في حالة هستيرية.

– ستنزلينه مثلما نزّلت فرحتي به، شئت أم أبيت! صرخ في وجهها آمرا.

- لن أفعل، هو قطعة من روحي، مهما كان شكله، ووضعه، لا ذنب له لأحكم عليه بشهقة الموت قبل أن يعرف شهقة الحياة.
- حكمت عليه بأكثر من الموت يوم استمريت في إجراء أبحاثك!
- ذلك قدره، المهم أن لا تكون أمومتي له مشوّهة.
- لا تفرضي عليّ مسؤولية لا أطيقها.
- أنت من أجبرتني على وجوده، أنسيت؟
- لن أسمح لك بأذيّتنا به!»

خشيت أن يصل هذا الشجار إلى علم عائلتها، ويحدث صدام بينهم وبين لطفي، ألحت عليه بأن يذهب ليرتاح، قليلا، وحملت نفسي إلى غرفة الاستعجالات، من أجل أن أتفقد أمها التي كانت منبطحة على السرير، بعد أن تلقت حقنة مهدئة، ثم خرجت إلى ساحة المستشفى أنشُدُ هواء خاليا من الانفعالات، فتفاجأت بتهامس طابتي ولطفي.

- علينا أن نعرف أين ذهب القرص الذي كان مرفقا بالرسالة، الموضوع بالغ الحساسية، خطير، أرجوك أن تتفهم، ساعدني، من أجلها، قال طابتي بصوت خافت.
- عليك أن تخشى على تضاريس وجهك، أنا زوجها، ولست سكرتيرها، هل تفهم؟ رد لطفي بنبرة عدائية.

- أقسم لك أن تلك الرسالة كانت مهنية بحتة.

حدجه لطفي بنظرات أكثر عدائية من السابق، فأردف طابتي بنبرة مهادنة:

- أرجوك، حياتنا أنا وهي في خطر، يجب أن يظهر قبل فوات الأوان، ساعدني على العثور عليه، أرجوك!

- ما الذي يجعلني أثق بك؟

- تمعن في الرسالة وستفهم أنها مُشفّرة، هي تتحدث عن سر دفين، وتربطه بجهة مهيمنة، أظنني فهمت قصدها، ولا أستبعد أن تكون محاولة اغتيال.

- لنخبر الشرطة، ماذا ننتظر.

- القرص أولا، ليس في صالح الاتصال بالشرطة الآن.

ابتعدا عن مكان وقوفي ولم أعد أسمع ما يدور بينهما، عدت إلى قاعة الانتظار، لحظات وخرجت إلينا الممرضة بخبر يخفف من وطأة القلق:

- خرجت من غرفة العمليات، يمكنكم رؤيتها في الصباح.

***

غادرنا المستشفى، بعد أن أكد لنا الطبيب استحالة رؤيتها في ذلك اليوم، وحظيت أخيرا بفرصة أخذ قسط من الراحة، غيّرتُ ملابسي، وانبطحت على الفراش، كنت تعبة لدرجة أنني

كنت مستعدة للاستلقاء في بركة ماء، ولكن النوم استعصى علي، تراكمت الأفكار في رأسي، ودارت فيه دورانا مدوخا، شغلني حديث طابتي عن الخطر الذي يهدد حياته هو وصبرية، وحيّرني أمر تطويق ذلك الكم من رجال الأمن للمستشفى، استلمتني الأسئلة، وكانت كل إجابة تصلح لكتابة أكثر من مقال، لكن قلمي عاف الخوض في الموضوع، أشعرني بالخيانة، فلولا علاقتي بها وبعائلتها ما كنت لأعرف تلك التفاصيل.

كلمة محتومة

أجبرت نفسي على النوم حتى لا يخطر لها أن تفكر بالورق، أمضيت ليلة مضطربة، وصحوت في اليوم الموالي، على غير المفترض، باكرا، رحت أتقفّى الأخبار مثل أي قارئ يملأه الفضول أو القلق، تفاجأت باسمها يتصدّر عناوين الصحف والنشرات: «لعنة اليربوع تطال عالمة في الفيزياء النووية»، « الفيزيائية صبرية عمران ترقد الآن في المستشفى، يقال إنّها حاولت التخلص من جنينها لأنه مسخ»، « المختصة في الفيزياء النووية صبرية عمران في غيبوبة، بعد نجاتها من محاولة قتل»، «المختصة في الفيزياء النووية صبرية عمران تدخل في غيبوبة بعد شجار عنيف مع زوجها، فضّه الجيران»، « باحثة جزائرية تتعرض لمحاولة اغتيال...»، «باحثة بالوكالة الوطنية للأبحاث المتقدمة تتعرض لمحاولة اغتيال على يد مديرها»... دهمني الشك في حقيقة ما يحدث، تلاعبت الأخبار التي تتقافز هنا وهناك بأعصابي، على الرغم من أنني كنت أعرف أنها ليست صحيحة، وزاد إحساسي بثقل الكلمة.

أصبحت اللحظات أكثر ثقلا وإرباكا، كل ثانية بحسابات، لكن في غمرة القلق، والشعور بالإحباط، انتعشت حقيقة كانت

مطمورة، لم أنظر إلى صبرية قبلا بغير كونها صديقتي، وقريبتي، التي تبكي، وتضحك، وتغضب، وتكتم، وتنفعل، وتصبر، وتنتكس رغبتها ...الإنسانة البسيطة، التي تحمل حقيبتها وتمشي في الشارع بلا اكتراث، والتي ظلت تحب ركوب المواصلات، بعد امتلاكها سيارة، لمجرد أن تعبر عن انتمائها إلى البسطاء... ولم يكن يخفى عليّ أنها ذكية، ومتفوّقة، لكنني لم أنظر إليها يوما، لا أنا ولا بقية الصديقات، ولا أي من معارفها، على أنها عالمة، ولا حتى باحثة مميزة، فإذا بها من فئة العظماء المكتوبين على جبين التاريخ، حزّ في نفسي هذا الإجحاف في حقها، وفي حق كل العقول المنيرة التي تختفي من بيننا في صمت، لأن بصيرتنا القاصرة تردمها في العتَمة.

هرعتُ إلى المستشفى، في هذه المرة، بإحساس جديد، قصدت الاطمئنان كذلك على وضع العالمة، الثروة التي خشيت أن تخسرها الإنسانية، تملكتني رغبة في أن أراها، أن أستكشف ملامحها من جديد، كنت أريد أن أقول لها أنها لم تعد بحاجة لفرصة قد تأتي من بطاقة دعوى إلى مؤتمر دولي، أصبحت هي المؤتمر الذي يجمع الخلق، ويتدافعون لأجل أن يحظوا بفرصة الاطلاع على علمها، ومعرفتها عن كثب...كان لديّ الكثير مما يجب أن يقال لها، لكن لم أحظ بفرصة رؤيتها في ذلك الصباح أيضا، ولم يسمحوا في المساء برؤيتها لسوى أهلها وزوجها، من وراء الزجاج، كانت يدها موصولة بقارورة مصل، وأجزاء من جسدها بمجموعة من الآلات، دخلت في غيبوبة، وتم تشديد

الحراسة على مكان وجودها بعد أن تسربت الأنباء عن أنها حاولت الانتحار عن طريق استهلاك حمض الهيدروكلوريك.

مضى يوم، ويومان...وأسبوع...وأسبوعان...مضت ستة أسابيع بحالها وهي على حالتها تلك، كانت أمها في حالة من الحزن والخوف، وحماتها تمضي يومها في احتضان حفيدتها، والدعاء لها بالشفاء، مرت علينا أيام كالجحيم، لم نعرف فيها طعم الراحة، حرثت أقدامنا أرض المستشفى جيئة وذهابا، من دون أن نرى بارقة أمل، لم أعد أحتمل المداراة، أخبرت نورة بما دار بين لطفي وطابتي، فجذبتني من يدي إلى سيارتها، ولم تنطق بكلمة، إلا ونحن أمام قسم الشرطة، انفجرت فيّ باللوم، قائلة: «هذا ليس مصدر صحفي تتكتّمين عليه، هذه معلومات عن جريمة محتملة، ألا تعين أهمية شهادتك، وتبعات التّستّر عليها؟»

لم تكن شهادتي فارقة، جاءنا الأسبوع السابع بخبر كاد ينخلع له قلبي فرحا، وقلقا: «ما حقيقة الذي يحدث في بيت الوكالة الوطنية للأبحاث المتقدمة؟ في الوقت الذي تخطّت فيه الفيزيائية صبرية عمران مرحلة الخطر، وخرجت من غرفة الإنعاش بسبب حادثة تسمم، لم يتم لحد الآن الإفصاح عن مصدرها، وخلفياتها، تم نقل الدكتور سليم طابتي، مدير بالوكالة الوطنية للأبحاث المتقدمة، على جناح السرعة إلى المستشفى، هو وزوجته وابنته، إثر تسرب للغاز...هل هي لعنة

اليربوع، التي تصيب كل من يحاول أن يفك لغزه؟ الفيزيائية صبرية عمران كانت تقوم بأبحاث لفائدة ضحايا الإشعاع النووي، وكان الدكتور طابتي يشرف على هذه الأبحاث، فهل ما يحدث له علاقة بهذه الأبحاث؟...»

اكتظ مدخل المستشفى مجددا بالإعلاميين، والأصدقاء، والأهل، ورجال الأمن، والفضوليين... وتقدم مجموعة من رجال الأمن، وسمحوا بالمرور مرة أخرى لعائلتها وزوجها، فغابوا عن أعيننا لحظات ثم عادوا وعلى وجوههم علامات الفرح والاطمئنان، أسرعوا نحو سياراتهم، وبقي موسى يزفّ إلى رجال الإعلام خبر وضعها الجديد، بنظرات تطفح بالفخر.

انتحيتُ جانبا، ورحت أتقفى الأخبار على (النيت)، صدمتني الأخبار المنتشرة عن صبرية، تنوّعت التكهنات، والافتراضات، وذهب بعض الإعلاميين إلى حد التلميح إلى وقوع جريمة شرف، شعرتُ بالغثيان، بأننا نعيش في بالوعة كبيرة، روّعتني تلك الأخبار الملفّقة في الجرائد، ووسائل الإعلام...والفيديوهات، ومواقع الأنترنيت، ووسائل التواصل الاجتماعي... نالوا من شخصها، ومن عائلتها، وأساؤوا إلى كل جهودها، ومشوارها العلمي... تداولوا، روايات قميئة عن حمل غير شرعي، وانتقام زوجها من عشيقها، واتصالات بمخابر أجنبية، وتمويل من جهات سياسية...وإهمالها لزوجها وابنتها ...وعاهتها التي قيل أنها كانت عقابا لها على جلب العار لعائلتها... نسجوا فظائع، لمجرد مغازلة جنون الفضوليين، والحصول على (لايكات).

- هذا القذر يحتاج إلى أن يتطهر بالتكوين عندك، لا علاقة له بتاتا بأخلاق الصحفي، قلت لمديري في العمل.

ابتسم ابتسامة مستهينة، وقال:

- ربما كان من طلبتي النجباء! الكثير منهم كانوا... وأصبحوا...وكأن ضميرهم يخضع لإعادة برمجة، يجب مراجعة ضوابط المهنة، الإعلام يتطور، وتجاوزاته أيضا تتطور.

- مقاله جريمة! يؤلب عليها الأقربين، ويشوه صورتها أمام الرأي العام، بعد كل تلك التضحيات!

- مجرد بالونات، ستفرقع وتختفي، هذه المبالغات تصيب القارئ بالتخمة، وتُكوّن لديه مناعة ضدها! تعويد الناس على الفضائح...والتجاوزات...ليس بالوضع الصحي...يجعل الشاذ مألوفا، كل ما يزيد عن الحد يتحول إلى الضد، قال لي ثم باغتني باللوم: لماذا لا تكتبين في الموضوع؟

- لا أجد الرغبة، أنا منهارة، هي أكثر من صديقة...رفيقة طفولة، وقريبة، وجارة...وأخت...

هز رأسه وقال:

- تتركين الفراغ للفقاعات، الناس تحب أن تملأ فضولها في حينه، ما لا يملأه حبر نظيف قد تُستفرغ فيه بالوعة الصرف الصحي.

بثّ كلامه في نفسي الرغبة في الرّد على تلك الهلْوسات، طلبت من مدير التحرير أن يحجز كامل صفحة التحقيقات ليوم الغد، لم يتردد في تخصيصها لي، كان يعرف متانة علاقتي بصبرية، وافترض أن يكون الموضوع سبقا، فأمسكت بقلمي بحرص وحددت العنوان: «السر وراء حادثة العالمة صبرية عمران» وبدأت التحرير بتساؤل: «ما هو موضوع الأبحاث التي تقوم بها صبرية عمران لتدور حولها كل هذه الجلبة؟» عرّفتُ بمشوارها العلمي، وبنشاطات الوكالة الوطنية للأبحاث المتقدمة، وكذلك بالمشوار المهني والعلمي لطابتي، ومجالات التعاون بينهما، لأجل أن أحط القارئ في سياق الخلفيات، ثم تطرقت إلى ظروف الحادث...واستشهدت بالتصريحات المتفرقة هنا وهناك عن أهمية أبحاثها، وأبعادها، والجهات التي يمكن أن تعنيها، وتحاشيت التفاصيل الشخصية، التي لا طائل منها سوى إثارة الأقاويل، وإلحاق الأذى بالآخرين...»

ونزل المقال الثاني بعنوان: « السلاح النووي الناعم... الغول الذي يبتلع الإنسان بشراهة»، عبّرتُ فيه عن مخلفات أكوام القذارة التي تنتجها النفس البشرية، وتلقي بها في طريق الآخرين، لدرجة أن تصبح التكنولوجيات الحديثة للاتصال والإعلام، الوسيلة التي يفترض فيها أن تخفف أعباء الإنسان، آلة تعذيب، تسمم حياته، وتجعلها قبرا يترقب لحظة استوائه بالتراب، ...حولت وسائل الاتصال الحديثة، إنجاز القرن السابق، العالم إلى قرية صغيرة، من أجل أن نتقاسم الحضارة،

فتحوّلت حياتنا، بسعي منّا، إلى غابة كبيرة، تُحتطب فيها الحضارة، وتحترق في مواقد الهمجية الأولى، كان يُفترض أن تقرّب الإنسان من الإنسان، وتمشي على الاختلافات، لكنها أشاعت الخلافات، والفوارق.

استشهدت ببعض القضايا، والحالات التي استلب فيها الإنسان حياة الناس وحرياتهم، باسم حرية التعبير، واستباح أعراضهم، وحياتهم ومستقبلهم...بزِرّ (شير) أو كاميرا هاتف نقال... ونبهت إلى ما فعله مجرمو الإعلام التفجيري بصبرية وطابتي، وهما يرقدان ما بين الحياة والموت، كثر القضاة الافتراضيون، ومدعو الرهبنة، والجلادون...والأوصياء القسريّون عليهما، وحتى مندوبي الجن، وحارسي الملائكة... هي مجزرة علنية لحقوق الغير باسم حقهم في الإعلام... السلاح النووي الناعم الذي ينفجر فينا بأزرار عقولنا وعواطفنا، ويتراجع بنا إلى البدائية والحيوانية.

عبّرت عن انفعالاتي، وقناعتي، بلا حسابات، وتفاجأت بتفاعل غير مسبوق مع ما كتبته، وتم سحب الجريدة بشكل غير مسبوق، وتلقيت عديد الرسائل والمكالمات التي تتضامن مع صبرية وطابتي، وعروضا لأجل القيام بتظاهرات تنادي بحماية الإنسان من هلوسات الإنسان، وهو المنحى الذي أثنى عليه المدير، وافتككت به، من دون أن أقصد، رئاسة قسم التحقيقات، لكنها لم تكن الفرحة التي توخّيتها، كان بالي مشغولا

بموضوع صبرية، استمر منع الزيارة عنها، والتكتم على حالة طابتي، واختفاء لطفي المفاجئ، في وقت هي في أمس الحاجة إليه، عشنا جميعا على أعصابنا، إلى أن أُذيع الخبر: «عالمة جزائرية تتغلب على لعنة اليربوع! تمت أول عملية تطهير للجو من مخلفات النووي بنجاح، العالمة صبرية عمران غامرت بحياتها لأجل إنقاذ حياة الآخرين!»

توالت الأخبار عن مساهمة صبرية في القضاء على شبكة إجرامية دولية، سعت للاستحواذ على مشروعها، واستغلاله في أغراضها الاجرامية، وبقيت التفاصيل غامضة لأشهر أخرى، وظهرت حكاية تشبه الأفلام البوليسية، لم يتوقع أحد أن تكون صبرية، المنكفئة على نفسها، سجينة المخبر، بطلة عملية أمنية كبيرة، أدّت إلى إلقاء القبض على مجرمين كبار، متغلغلين في شتى الميادين، منهم أشخاص نافذون، وأرباب مال، وشخصيات أجنبية...ومثقفون...وعمال...وذوو سوابق عدلية... واكتشفنا أن تلك المرأة التي كانت في الإنعاش، موصولة بأنابيب، وأجهزة لم تكن هي، كانت شرطية تؤدي مهمة طمأنة أهلها عليها، كانوا يرونها في كل مرة من خلف الزجاج، فتبتسم لهم، أو ترفع يدها قليلا، ولم يكن بإمكانهم اكتشاف أمرها، وملامحها متوارية خلف الشاش والضمادات.

الطيّب لطفي!

تثاقلت خطواتها على السلالم، تناوب الفضول والقلق على إرباكها، لم تحظ بأي معلومة بشأن الدعوة التي تلقتها، كل ما علمت به هو أن المسؤول الذي أشرف على ملف عملية اليربوع يريد مقابلتها، دارت رأسها بجميع الاحتمالات، وتوقعت كل شيء، إلا أن ترى لطفي وبشير وكريم بالزي العسكري، وسط جمع من المدعوين، وكان بشير في أفضل حالاته، لم تكن يده مشلولة، ولا ملامحه مرتخية، ولا شفته السفلة متدلية نحو الجهة اليمنى كما كان يبدو لها قبلا، تسارعت دقات قلبها، كاد ينخلع ويفرّ من بين أضلعها.

فركت عينيها أكثر من مرة، وانتقلت إلى التمعّن في المفاجأة الأغرب! رأت لطفي يتحدث إلى المقدم جابر، الشخص الذي كان يتواصل معها أثناء قيامها بتجاربها، وكأنه يعرفه منذ زمن! تداخلت الأمور في وعيها، حدّقت إليه بغوار، لبست نظارتها، لتتأكد أن الأبحاث، وكثرة السهر، لم يضعفوا بصرها، لحدّ أن لا تُميّز ملامح زوجها، الذي تعيش معه منذ سنوات، تغيّر قليلا، نزل وزنه، ودكنت بشرته، وبدا وجهه مُتعبا، تغيرت ملامحه عن

آخر مرة رأته فيها، لكن ليس إلى درجة أن يخرج لها في صورة لم ترتسم لها حتى في الخيال!

ضجّ رأسها بصور حياتهما معا، ولم تُفلح في إيجاد مقاربة لوضعه ذاك! جمّدت المفاجأة انتباهها، لم تنتبه لدخول المسؤول الذي دعاها، ولا لبروتوكولات استقباله، أحست بأنها متلاشية، في مكان آخر من العالم، لم يعد إليها إحساسها بوجودها إلا عندما ارتفع النشيد الوطني، ودبّت فيها كلمة «قسما» بقشعريرة مُزلزِلة، تراجعت إلى الوراء، واصطفّت جانب الجندي الذي يقف أمام الباب، ووقفت وقفته ذاتها، جسدها منتصب كالسّارية، وروحها تُرفرف مع العلم، دهمتها هيبة الموقف، شعرت بأنها في أحضان جبل شامخ، مدّت يدها نحو الأمام، من دون أن تشعر، واستمرت تتمتم بانفعال بعد أن توقّف النشيد: «فاشهدوا، فاشهدوا...فاشهدوا...!»

صعد أحد الضباط إلى المنصة وأشار إلى لطفي ومن معه، وخطب قائلا: «يُسعدني تكريم أبطالنا الذين ساهموا في القضاء على شبكة إجرامية دولية خطيرة، تضمّ مندسين، وخونة، ومجرمين، حاولوا أن يضربوا بمصالح بلدنا العليا، ويستنزفوا ثرواته البشرية والمادية...والطبيعية...ويُهسهسوا مقوماته الأساسية، لكن هيهات! تصدّى لهم أبناء هذا الشعب الشرفاء، من أمثال هؤلاء الرجال والنساء الموجودين اليوم بيننا، وشهداء الواجب الذين تحضرنا ذكراهم الخالدة...» ذكر منهم

الملازم صالح المولود صالح بوزيان، والشرطي فارس، والنقيب سامي المولود طارق صويلح...ذكر قائمة تضم ضباط ورجال الأمن، وخبراء، ومواطنين بسطاء... أُزهقت أرواحهم خلال تنفيذ هذه العملية التي تمت على مراحل، ودعا الحضور إلى قراءة الفاتحة على أرواحهم.

اصطكّت أسنانها، وكاد يغمى عليها، لم يكن النقيب سامي سوى طارق، الذي رافقهم في الرحلة إلى (رقان)، تم اغتياله في نفس الواحة التي أصرّ على السهر فيها في تلك الليلة، أعلنها ذلك الشخص بألم، ثم أعطى الكلمة لشخص آخر، قدّمه على أنه المسؤول الأول عن هذه العملية، فصعد إلى المنصة، وتفرّس في وجوه الحاضرين بنظرات مليئة بالغبطة، وشكر جهود كل المساهمين في العملية، ثم خصّ صبرية بحديثه: « لا يسعني إلا أن أثني على الحِسّ الوطني العالي للدكتورة صبرية عمران، الذي جعلها تتعاون، بصدق وأمانة، مع الجهات الأمنية، وتُبلّغ عن شكوكها في عماد وطابتي، اللذان كان يخططان لسرقة أبحاثها، وبيعها لأحد أقطاب هذه الشبكة الإجرامية، وهي جماعة دولية مختصة في الإرهاب النووي، تستخدم الأبحاث كوسيلة ضغط على الحكومات، والمنظمات، وتعمل على خلق بؤر التوتر والاضطرابات لأجل تسويقها...كما تجدر الإشادة بتميز جهودها المبذولة، التي ساهمت في إدخال البلاد في مرحلة جديدة من مراحل البحث العلمي، وفتحت للإنسانية مطلّا غير مسبوق على الوقاية من الإشعاعات النووية ومكافحتها.»

تعالت التصفيقات، ثم اصطف بعض الحاضرين، من مدنيين ورجال الأمن وعناصر الجيش، وتم إعلان مراسيم تكريمهم، قال ذلك المسؤول: «أصدرت القيادة العليا قرارا بترقية استثنائية لهؤلاء الأبطال، وسأقوم بالنيابة عنها بتثبيت أوسمة الشرف على صدورهم.» اعتراها الذهول، عندما تقدّم المقدم جابر وطارق وبشير وكريم، وقدّموا أنفسهم واحدا واحدا: المقدم جابر! الرائد الطيب الملازم أول هيثم! الملازم عصام!

تمّ وضع (القالونات) على أكتافهم، وتغيرت الرتبة: العقيد جابر! المقدم الطيب! النقيب هيثم! الملازم أول عصام! ثبتت بصرها في (قالون) لطفي، وتهاطلت الأسئلة عليها كالمطارق، متى وكيف أصبح ضابطا؟ بل ضابطا ساميا! وهي لم تعرفه سوى رئيس مصلحة بشركة بترولية أجنبية! أيهما زوجها! لطفي أم الطيّب! جالت ببصرها في وجوه الحاضرين، وصرخت في أعماقها: «كان ينشط في مجموعة (سيغما6)، مع طارق!» حضرتها صورته وهو يلازم عمر في سوق المدينة، ويقتني الهدايا، خلال تلك السهرة التي عاد منها صباحا وكأنه أمضى ليلته في مزبلة.

اكتشفت بأسى أنه كان يُعرّض نفسه للخطر، والمهانة، ونظرات التحقير... لأجل الشرف، ساهم في الكشف عن عصابة خطيرة من ناهبي الآثار ومهرّبيها! صدق الرجل الهوليسيني، كان فعلا سرّا! كان في مهمة أمنية، وانضم إلى جمعية نورة للسبب

ذاته، استنتجت سبب غيابه وظهوره المفاجئ طيلة تلك الرحلة، وكيف كان سمير يلمح لكونها فلتات لأجل عَرق الصحراء، أي الخمر والنساء، غرغرت عيناها بالدموع، وتمتمت بأسى:

– كان ينفلت من جلساتنا من أجل عِرْق الصحراء، من أجل حمايته من دسائس الخوَنة والمجرمين! رحمه الله!

***

وكأنه منام! ثبتت نظراتها مجددا في بشير باستغراب، لم يكن سهلا أن تستوعب أن يكون الحاجب، الذي لا يُحسن كتابة رسالة، ملازم أول، استغربت أن يقنع الجميع بأنه شبه أمي، ومعاق... بتصرّفاته، ومظهره، وكلامه...تذكّرت يوم نصحها بأن لا تقدم ملف المشروع لأي جهة كانت، وكيف استدرجها للقاء جابر بذلك المستشفى...وكريم الذي لطالما شعرت وهي تحدثه بأنه شخصية من شخوص رواية البؤساء لفيكتور هيجو، يركب معها الحافلة، ويروي لها عن بؤسه وشقائه...وتتفاجأ به نقيبا! قالت في نفسها: «الحياة حفل تنكر! قد نستطيب رفقة شيطان يلبس طيبتنا، وننفر من حمل تكسوه الظنون بجلد وحش!»

انتهى حفل الاحتفاء بمنفذي عملية (سيغما)، نظر ذلك المسؤول إلى صبرية، وقال:

– القائد صبرية سيتم تكريمها قريبا من طرف فخامة رئيس الجمهورية، وستحظى بوسام الشرف الذي

يليق بجهودها، وأضاف وهو يودعها: يسعدنا خدمة الوطنيين من أمثالك.

تلعثمت قليلا، وكأنها تشاور نفسها، ثم قالت:

- أود لو أعرف بعض تفاصيل هذه العملية، لأجل فضولي كإنسان.

ندت عنه ابتسامة، ونظر إلى لطفي، وقال:

- في حدود المسموح به، يمكنك أن تحصلي على بعض التفاصيل من المقدم الطيب، ما عدا فيما يتعلق بملف اليربوع، اسألي عنه العقيد جابر.

ابتسم لطفي وأدى التحية العسكرية، وانصرف، تركها للمزيد من المفاجآت، ونزل إلى المركن، المفاجأة صدمتها، كانت تشك في صدق طابتي، واستنتجت كونه لم يكن يريد لأبحاثها أن ترى النور، لكنها لم تتوقع أن يكون خائنا لوطنه، وبائع أدمغة! وذئبا بشريا، استغل وجع سمير ووظفه لصالحه، كانت أمور الدنيا آخر همّه بعد فقدانه عائلته، لكن تلك العصابة عرفت كيف تستدرجه، وفّرت له الرّفقة، والمواساة، في وقت الضعف واضمحلال الوعي، واستلبت قدرته على التراجع في وقت العودة إلى رشده.

تغيرت حياته بعد ما حدث لعائلته، استقرّ في فرنسا، وأصبح يبحث، بأي شكل، عن التّناسي، أصبح يرتاد الملاهي،

ويسرف في الإنفاق على الخمر ولعب القمار، وكانت في ذلك مصيدته، وضعت الشبكة في طريقه فتاة أوهمته بأنها خسرت عائلتها في تشرنوبيل، وأوحت له بأنها تتعامل مع جهات تعمل على القضاء على المفاعلات النووية، وجرى المال في يديه، ودخل في دوامة إلزامية تنفيذ الأوامر التي لم تكن في الحسبان، ولم يعد الانسحاب ممكنا، ثمنه حياته، وتم تكليفه بتقديم المعلومات عن أشخاص محددين، والمساعدة على تنفيذ بعض العمليات.

وضعه صاحب ذلك المخبر تحت تصرف طابتي، وأوهمه بأنه مكلّف بأن يوفر له بعض المعلومات، ويراقب مراحل الاعتناء باليرابيع في الصحراء، لكنه في الحقيقة كان ينفذ مهام أخرى، ويستغل التعاون القائم بين نورة وبين الجمعية التي ينشط من خلالها، ليقدم معلومات عن تحركاتها، هي وكل من له علاقة بها، كانت نورة أيضا مراقبة، وبعث إليهم بتقارير عن تحركات كل واحد منا في رقان، كان حصان طروادة الذي عرف كيف يكسب الثقة، ويثير التعاطف، بحكاية وفائه لزوجته الجزائرية، ودفع ثمن تلك الثقة المرحوم طارق، كشف أنه رجل أمن، ارتاب في طريقة تواصله مع ذلك البائع في سوق رقان، واستطاع أن يستغفله ويسرق منه شريحة هاتفه النقال، ويطلع على اتصالاته.

أنهت حديثها إلى جابر ونزلت إلى المرأب، وجدت لطفي في الملابس التي خرج فيها ذلك الصباح، استمر يحدثها حديثا

عاديا، وكأن ما دار أمامها قبل لحظات هو أضغاث أحلام، ظلت صامتة، والحيرة تفترس ملامحها، ثم باغتته بالسؤال :

- من أنتَ؟
- رجل طيّب، اعتبريني الطّيّب لُطفي.

جمدت نظراتها، وانكمشت تعابير وجهها، بشكل يفرض الجد على حديثهما، وكررت السؤال:

- من أنتَ؟

حررت شفتاه ربع ابتسامة، وردّ لها السؤال نفسه:

- من أنتِ؟
- لا أمزح!
- ولا أنا!
- كيف طاوعتكَ نفسُكَ على أن توهمني بأنك موظف في تلك الشركة وأنت تنفذ عملية خطيرة؟
- كيف طاوعتكِ نفسُكِ على أن توهميني بأنك باحثة عادية في تلك الوكالة، وأنت تجازفين ببحث نووي فريد؟ وفوق ذلك تتلاعبين بمشاعري وآمالي، وتوهميني بأنك حامل!

تلعثمت، وقالت:

- كان في ذلك حماية لنا جميعا، أما رأيت ما حدث لطابتي؟ وضعت له الخادمة منوّما في الأكل وفتحت أنبوب

الغاز وغادرت، ولولا حنكة رجال الأمن الذين كانوا يراقبونه، لكان اليوم هو وعائلته في صفحة الوفيات! تلك العصابة خطيرة، لها في كل شيء، في التهريب، والمخدرات، ...والقتل...لست أدري ما الذي ساقه إليهم؟

– الطمع.

نعم هو ذاك، تمتمت وهي تستحضر صورة عمر، اكتشفت أنه كان يبيع للأجانب الآثار الصغيرة التي يحصل عليها بطريقته في رقان، فاصطاده أحد المهربين المحترفين، ودرّبه على تكوين شبكة محلية، تضم طلبة في علم الآثار، وحرفيين، وعاملين في مجال النقل، وسكان...وتحوّل من سارق هاوٍ إلى مهرب محترف، وجعل مقرّه مَحشَشة في أطراف إحدى الواحات، وقام بتوسيعها إلى وكر دعارة، خادع فطنة جده (الحمودي)، واستغل مكانته في تسهيل نشاطاته، لكن طارق رحمه الله، تمكّن من استدراجه، وكشف أهم المتعاملين معه، قبل أن يدفع غلطة عدم اتخاذ الحرص اللازم مع سمير، ظنه أجنبيا، خاليا لحزنه، لكنه كان السبب في تصفيته بطريقة شنيعة، قاموا بربطه إلى جذع نخلة وأطلقوا عليه العقارب.

اقشعّر بدنها، كان يمكن أن يحصل لها ما حصل له، كانت مجموعة من تلك العصابة تريد الحصول على أبحاثها، لأجل منعها من تطويرها، كانوا يريدون احتكارها، لم يكن في مصلحتهم أن يتم تطهير البيئة من الإشعاعات، ويبخس سوق النووي، انتفضت كأن إبرة وخزتها، وقالت له:

- كانت الجهات الأمنية عندنا على دراية بعلاقة طابتي بتلك الشبكة الإجرامية، اتّصل بي المقدم جابر عن طريق بشير، وطلب مني أن أكتم الأمر، لكن لم أتوقع أن يكون بشير من رجاله، ظننته مجرد وسيط!

ابتسم لطفي، وقال:

- لم يطلب منك أن تدّعي أنك حامل!

- ليس بالضبط، لكنه أوحى لي بالفكرة، طلب مني أن أجد ذريعة تجعلني أبتعد عن البيت المدة الكافية لتنفيذ العملية، من دون أن أثير الشكوك، فوجدت في إصرارك الفوضوي على الانجاب ثانية، أفضل ذريعة لإقناع طابتي بضرورة ابتعادي عن المخبر لوقت، من دون أن يشك في الأمر، وبعدها انطلت عليه حيلة محاولة الانتحار، وتم التجريب الميداني بهدوء ونجاح.

- بفضلي، قال لطفي، أنا أتقنت الدور!

- أتقنت الإساءة، قالت مصححة.

- بلى، كان ذلك أيضا دورا أديته، مديري في العمل، هو مهرب ألماس وأحجار كريمة محترف، كان يستغل وضعه بالشركة، ويدير شبكة واسعة من المهربين الصغار لهذه المعادن النفيسة، ويقوم بتهريبها إلى الخارج بشتى الطرق، ولذلك قبلت بأن تعودي للعمل مع طابتي، وتحملت نظراته النذلة لك طيلة تلك

السهرة، لأكسب ثقة أحد أكبر رؤوس المافيا، كان الخبيث يقيس مدى استعدادي لأن أبيع، واضطررت إلى أن أجاريه إلى حد يمكن احتماله، إلى حين أن وقع، وطوينا ملف (سيغما6).

- المسكينة ناريمان، هي امرأة حيوية، وتحب الحياة، لا تستحق ما جرى لها من وراء أقرب الناس إليها، الزوج خائن، والخال مهرّب، كادت تفقد حياتها، وحياة ابنتها.

- إذا كانت تحب الحياة، كما تقولين، فستعرف طريقها إلى بداية سعيدة، اطمئني، طريق السعادة يبدأ برغبة، نفس المنطق المطبق في الحب، وفي الحصول على أطفال، قال لطفي يلمّح إلى مسرحية حملها، فامتعظت وردت له تلميحاته المغرضة:

- تقصد الرغبة المشتركة، وليس الغصب.

أطلق ضحكة رنانة وقال:

- كنت على علم بكذبة حملك، يا حذقة، على من كنت تمثلين يا مبتدئة! لو كنت ركزت قليلا ذات صباح، لكنت انتبهت لكون إنارة الحمام تعطّلت بفعل فاعل، وأنه كان هناك إناء جميل، شفاف، ينتظرك في أسفل المرحاض، اجتمع فيه سائلك السحري، الذي اختطفته بعدك مباشرة وجعلته مسبحا لكاشف الحمل، ومثلما توقعت، السالب غالب، كنت أعرفك

بما يكفي، لا يمكنك التراجع عن قرارك بين ليلة وضحاها، لكنني جاريتك لأن جابر اتصل بي أنا الآخر، وأشار عليّ بأن أختلق شجارا معك وأقطع اتصالي بك مدة، وأفهمني بأنك على دراية بما يكفي من الأمور، للتجاوب مع اختفائي، ولم أجد أفضل من استقدام رفيقة وعلي لتأكيد حصول الخصام، فقد كنا مراقبين من الجهتين، لكنه لم يخبرني بشيء عن عملية الانتحار المزعومة، لم يكلمني إلا عن موضوع الرسالة، أظنه خشي أن تؤثر على علاقتنا، وأخبرني من دون أي تفاصيل بأنك بخير، وأنك بحاجة إلى الحماية بسبب مهمتك، وأنّ تلك الرسالة من ضمن أوجه الحماية.

- صدّقتَ أنني بخير؟ قالت تستنكر استسلامه لنصائح جابر.

- ما من خيار، التقيّد بالنظام من أولويات واجباتي، عملنا يقوم على حكمة «هناك دائما مبرر تجهله.» وعلى الرغم من ذلك لم يطاوعني قلبي، حصلت بطريقتي الخاصة على معلومات تؤكد أنك بين أياد أمينة، قال لطفي موضحا، ثم أردف مستفهما: ما حكاية تلك الرسالة؟

ابتسمت، وقالت:

- الطُّعم الذي كاد يودي بحياة طابتي، وكشف عماد وجماعته، طلب مني جابر أن أكتبها وأتركها عند باب

مكتبه، لتقع بين يدي وسيلة، ويشيع خبر الانهيار والانتحار، ولأنها ثرثارة وتحب إشاعة الأقاويل مررتها على نظرات عماد أولا، فوجد فيها فرصة ليقضي على طابتي، اتصل بتلك اللجنة العلمية وبلغ عنه، وأصبحوا يلاحقونه بالتهديدات، وهو ينفي استلامه أي قرص، وعندما تبين لهم أنه انكشف، حاولوا التخلص منه، وارتكب عماد بذلك خطأ حياته، لأنه أوصل جابر وجماعته إلى رأس عملية (سيغما3)، وهو ممرض بسيط، يعمل بأحد مستشفيات العاصمة، حاول التخلص من طابتي، كان مكلفا بتجميع معلومات عن الوضعية الصحية والاجتماعية لمرضى معينين، حتى في العيادات الخاصة بحكم علاقاته، وطبيعة عمله، وأسفرت مراقبته عن ضرب عصفورين بحجر واحد، تم إقفال ملف (سيغما3) و(سيغما2)، التي أوقفت عمليات الاتجار في الأعضاء التي كانت تتم عبر التراب الوطني.

كان عماد يعمل لصالح جهة أجنبية أخرى تعمل في مجال شراء الأدمغة الجاهزة، أي الأبحاث الجاهزة، وكان طابتي يستعين به كوسيط في استقطاب الباحثين ذوي المشاريع المميزة، ويعطيه عمولته، لكنه تكتم على ملف عملية اليربوع، وأوهمه بأنه يتعلق بالطبي النووي، ولأنه مؤهل لقراءة مثل تلك المعطيات، استطاع أن يفهم أن الموضوع أكبر من مجرد

تطوير أجهزة الكشف بالأشعة، ومواد الحقن، وأن تكتم طابتي وراءه منفعة مادية كبيرة، وحاول أن يستدرجني إلى التعاون معه، واتصل بتلك الجماعة، وعرض تعاونه، وقبض ثمن جثته وهو حي، وحدث ما حدث.

ربت لطفي كتفها، في إشارة إلى أنه يساندها ويفتخر بها، وقال:

- (سيغما) عملية كبيرة، ومتشعبة، تم العمل بموجبها مكافحة ثلاث عشرة شبكة إجرامية خطيرة، تنشط في إطار منظم، ومنسق، وتديرها رؤوس نافذة في الداخل والخارج، متغلغلة في جميع مناحي الحياة، التجارية، والاقتصادية، والصناعية، والفنية، والثقافية... والجامعية، منها الشبكة التي سميت (سيغما 4)، التي كانت تنشط في مجال زرع الفتن، وزعزعة أمن واستقرار الدول، و(سيغما 5) التي مجالها خلخلة الاستثمار، و(سيغما 7) التي كانت تعمل على زرع الفاسدين في مواقع استراتيجية لأجل خلخلة البنية التنموية للبلاد، و(سيغما 8) المختصة في تبييض الأموال وتهريب رؤوس الأموال من وإلى الخارج، و(سيغما 10) المختصة في تزوير الوثائق والعملات، و(سيغما 11) المكلّفة بإعادة تنشيط خلايا الإجرام الداخلية النائمة، والعمل على ربطها بشبكات خارجية، و(سيغما 12) المختصة في

الاتجار في الأسلحة بأنواعها...وهي في مجملها، تصب في الوعاء الإجرامي ذاته، تديره شبكة دولية تنشط في الخارج، وتقوم بتغطية نفقاتها بعائدات بعضها بعض، فالعائدات المتحصل في بلد تغطي النفقات المستغلة في بلد آخر، في حركة متشعبة وغامضة لرؤوس الأموال، يصعب تقفي أثرها.

قاطعته منبهة:

- نسيت أن تذكر (سيغما 1)؟
- هي القاسم المشترك لكل تلك النشاطات، تضم تجار الدعارة، والاتجار في البشر، والمخدرات، والترويج للمواقع الإباحية...وكل وسائل استلاب وعي الإنسان، قال لها ثم ابتسم وأضاف: كان الأجدر أن تسألي عن (سيغما 13)! لا أظنك تتطيّرين من الرقم!
- أنا! إطلاقا، لم أعد أتطير من سوى السلاح النووي، يقشعر بدني لمجرد التفكير فيه، لعلك أنت من تتطير من الرقم 13!
- أنا!كيف أتطير من سعادتي!تصوري أن زوجتي المسكينة هي موضوع (سيغما 13)! كادوا أن يفترسوا دماغها!
- هي فعلا عملية افتراس! أخطر ما يمكن أن يتعرض له الإنسان هو استلابه أفكاره! أشعر بالخسارة من

أجل طابتي! شخص بمثل ذكائه وكفاءته، تم استغلاله أبشع استغلال، أعادوه طُعما إلى بلده، لينتهي به الأمر إلى أن يرقد هذه الرقدة المخزية في المستشفى، خرّب الغاز خلاياه العصبية، وأصبح مشلول الادراك، وفوق ذلك يلاحقه عار الخيانة، هل تعلم معنى أن يدير مخبرا وطنيا لأجل أن يبيع الأبحاث للخارج، ويمد الدعم لشبكات إجرامية، كان يسند ظهر نذير خال ناريمان في مجال تهريب الأحجار الكريمة، ما فعله أشد قماءة من بيع أعضاء الموتى، هو يقبر مصير البشرية جمعاء.

عاد لطفي ينبهها:

- هل تعلمين أنك كنت في جميع الأحوال من نصيبي؟ كنت في البداية مكلفا بملف (سيغما 13)، بجمع معلومات عن نشاط الوكالة الوطنية للأبحاث المتقدمة، وقرأت تقريرا عنك، قيل فيه أنّكِ بسيطة، وقليلة الخبرة بأمور الحياة، مقارنة بأقرانك، وكانت رفيقة في الوقت نفسه تصفك بالكنز، ولم أعرها اهتمامي، ولميخطر ببالي أن تكوني الشخص ذاته، وعندما التقيتك أول مرة على السلالم، لم أكن قد رأيت لك قبلا صورة، جابر سحب من الملف كل الصور، أرادني أن أكوّن فكرتي عن الشخصيات قبل أن أرى ملامحها، ولكنني عرفت من تكونين في المرة الثانية، كنت أعلم بقدومك، حاولت

رفيقة أن ترتب لقاء بيننا، لكنني فضلت أن أراقب هديّتها عن بعد، وتفاجأت بذوقها يوافق لأول مرة ذوقي، وأسديت لي أنت بعدها معروفا عندما اتصلت بمكتبي، وقّرت علي أمر اختلاق سيناريو آخر.

سألته بشغف:

- ماذا وجدت؟

- (سيغما 13)، عاد إلي الملف الذي سحبه مني جابر، قال يناكف فضولها ثم أردف موضحا: كنت في تلك الفترة مراقبة، وأنا أيضا، كنت أعرف أن جابر يراقب حتى جابر، استنتج أن لقائي الثاني بك كان مفتعلا، سحب مني الملف، وكلفني بملف (سيغما6) الذي لم يكن دوري فيه يزيد عن رصد تحركات مديري في العمل، لا مكان للصدف في عملنا، كل شيء بحساباته.

هزت رأسها وقالت مساندة:

- أجل، اكتشفت أخيرا سر تلك الأوراق المالية من فئة مئتين دينار التي كانت تظهر في كل مرة مع شخص، وبخربشة، فالرمز (سيغما) في نظام الترقيم اليوناني القديم يساوي القيمة مائتين، وهو يرمز في الرياضيات إلى الجمع، ويأخذ الحرف شكلين، الكبير Σ والصغير σ، وتم استخدام الورقة المالية من فئة مئتين 200 دج كشفرة، هي ترمز للملف، وتُضاف إليها كلمة السر،

وتُعطى عن طريقها إشارات التنفيذ، مثلما حدث مع طارق رحمه الله، جاءه البائع في سوق (رقان) بإشارة الدخول في وكر المهربين.

صمتت صبرية قليلا، وكأنها تراجع حساباتها، ثم أضافت بثقة:

- أراهن على أن ملف (سيغما) لم يُقفل بعد، وأن هناك خمس عمليات أخرى يتكتمون عليها، ولعلّ هذا الحفل يندرج ضمن محاولات التمويه عنها، (سيغما) هو كذلك الحرف الثامن عشر في الأبجدية الإغريقية، ولم تأت تسمية العملية اعتباطا، أغلب الظن أنه توجد ثماني عشرة عملية وليس ثلاث عشر، (سيغما) يرمز كذلك في علم الإحصاء للانحراف المعياري، أي أنه يدل على مدى امتداد مجالات القيم ضمن مجموعة البيانات الإحصائية، وأظن أن هناك ملفات يتم معالجتها بطريقة استثنائية، وتخضع للسرية التامة، كأن تتعلق بمجالات عالية الحساسية، أو بأسماء ثقيلة، لمّح جابر لذلك من دون أن يقصد.

- زوجتي جيمس بوند! قال لطفي ممازحا، ونضحت ملامحه بالرغبة في تحاشي الموضوع، بينما نشّطت ملاحظته ذاكرتها، وأضافت باندهاش:

- كريم الصيدلاني، العفريت الذي كان يخرج لي في كل وقت، ومن أي شق، كان مكلفا بضمان أمني وسلامتي،

أنقذني في يوم حادثة التحرش من سرقة (السّيديه) الذي كان في حقيبتي! وكان حوله، في ذلك الزحام، أكثر من شخص مدجّج بالسلاح، في استعداد للتدخل في أي وقت، وحتى سائق التاكسي، الذي أذابني في أسطوانة التقوى، كان رجل أمن، وتبعني من بعيد، بعد نزولي من التاكسي، حفاظا على سلامتي... كل شيء كان مدبرا، حتى حديثه عن بشير والمعروف الذي صنعه معه كان يهدف به إلى بناء ثقتي به، وفعلا مجرد أن حذرني من عماد ومن معه طلبت منه أن ينتظرني في المستشفى، ووجدت هناك المقدم جابر في انتظاري، جرجرني إليه بطلب مني، تصوّر! وكانت تلك بداية التعاون بيننا، أصبحت أتحجج بالوحم، ثم بمشاكلنا، ولكنني في الحقيقة كنت أتابع أبحاثي في مخبر آخر مجهز بكل ما يلزم، وضعوا تحت تصرفي فريقا مؤهلا للعمل، وموّهوا عن تجاربي بتسريب أخبار عن حالتي الصحية الملفقة.

توقفت لحظة عن الكلام ثم نظرت إليه بنظرات حائرة، وأضافت :

- بشير هو من كان يبدل المعلومات التي كنت أسلمها لطابتي، منعه من الحصول على تفاصيل البحث، وجدت تقارير كاملة عند جابر، عندما قابلته أول مرة.

ساد بينهما صمت مفاجئ، يوحي بأن جوهما يتفق تماما مع الطقس، صافياً، هادئاً، يلوح في الأفق بلحظات رائقة، وفجأة

امتقع وجهها، واستيقظت ذاكرتها على قساوة تلك الفترة التي عرفت فيها حياتهما جوا باردا، تسوده الخلافات والمشاحنات.

– ما بك؟ قال لها لطفي بنبرة توحي بأنه يستنتج ما يدور في رأسها.

غرغرت الدموع في عينيها، وتجاهلته.

– تبكين!

ردت بصوت مبحوح:

– لم يكن مشواري سهلا، طعم النجاح حلو، لكنه لا ينفي مرارة ما خسرناه، الإنسان هو عائق الإنسان، ينتقص من عمر غيره، بظنونه، وتدخلاته... وتلك الأدوار المسرحيات السخيفة التي يفرضها عليهم، ويغتال بها حقوقهم.

– تتحدثين وكأنك في نهاية حياتك! لازلت شابة، في انتظارك الكثير من اللحظات السعيدة.

أطلقت زفرة حرة، ونظرت إليه نظرات مشككة، وقالت:

– حقا، لم يكن هذا رأيك قبل بضعة أشهر!

– لم أقل يوما غير أنني أريد سعادتك.

– قلت بأنني لم أعد شابة، وأنه عليّ أن أعجل بالإنجاب قبل فوات الأوان.

- أردت أن أحفّزك على زيادة دواعي سعادتنا، مثلك لا يغادرها الشباب أبدا، ستظلين مرغوبة ومبهرة حتى في سن السبعين، لعلك لا تعي قيمتك، لست مجرد وجه جميل، أنت روح عظيمة ومؤثرة، قاومت إغراءات مادية ومعنوية يصعب مقاومتها لأجل المبدأ.

ظلت صامتة، تائهة النظرات، لم يبد عليها التأثر بثنائه، قالت من دون أن تغير موضع نظراتها:

- لم تكن خلافاتنا مجرد تمثيلية، قصدت ما قلته عن رغبتك في أن أترك المخبر، كان سأمك من حياتنا واضحاً.

- أعترف، حسن...إلى حد ما، كان لي عذري، مخاوفي كانت كبيرة، ظروف عملي لم تكن سهلة، وكنت أود أن تكوني بعيدة عن كل تلك المشاكل...فكرت في حياتنا، ومصلحة ابنتنا، لكن يبدو أنك كنت في حالة احتقان، واجهتني بذلك الجرح وكأنني غريمك...وتساءلت في نفسي إن كنت أعرفك.

ردد عبارات الاعتذار في نفسه، فكر في أن كل كلمة سيضيفها لن تكون ملائمة، وظنّ صمتها في غير صالحه، لكنها نظرت إليه نظرات واثقة وقالت:

- لم يعد جرحا، ربما لولاه لما كنت الآن الفيزيائية صبرية عمران، انكساراتُنا تشبه أحيانا انكسارات أشعة الشمس على موضع عاتم، تُخرجه إلى النور وتصنع في

الكون منظرا مبهرا، استشهدت به لأنبهك لكون طريقتك في معالجة أمورنا هي وصفة مجرّبة، أثبتت عدم نجاعتها.

شعر بالحرج، ركّب هدف مراجعة وضعه كزوج، على هدف حمايتها، ولم يجد كلاما يُعلّق عليه، أحس بأن دوافعها تقهر دوافعه، ابتسم ابتسامة مهادنة، وغيّر الموضوع، قائلا:

- من كان صاحب تلك الرسائل؟
- عماد، كان يريد أن يزعزع ثقتي بطابتي، ويمهد للحلول مكانه.
- لم يخطئوا إذ ما قالوا عنك ساذجة وبسيطة! صانع (الكرانتيكا) يحفظ سرّ وصفته وأنت تعرضين أبحاثا بتلك الأهمية على الرائح والغادي!
- لم أفكر في سوى النفع العام، العلم لا يُحتكر.
- مبرر آخر ساذج، ليس أنا من يقول، أضاف مبررا، ذلك التقرير.

قالت بامتعاض لا يخلو من نبرة المباهاة:

- رقّتني سذاجتي إلى مدير عام الوكالة الوطنية للبحوث المتقدمة، وحصلت على غلاف مالي كبير لأجل أن أشرف على أبحاث تتعلق بترميم الجينات المتضررة من الإشعاعات.

- لم يكن للمدير العام علاقة بالموضوع، لمَ تمت إقالته؟ سألها باستغراب.

- بسبب تهاونه، ترك لطابتي حرية أن يدير المخابر بلا رقابة، ولا حساب، كان مبهورا بعلمه، وخبرته، وترك له فرصة أن يستغلها في تحقيق أغراضه الشخصية، ولا يُستبعد أن تتم متابعته جزائيا بتهمة سوء استغلال الوظيفة، تمكن طابتي من تكوين بنك معلومات عن أهم الإطارات الوطنية والباحثين في مختلف المجالات وقام بتحويلها إلى جهات يتعاون معها في الخارج، بشكل يضر بمصالح بلده وأمنه.

لم يعلق على كلامها عن طابتي، كان لا يزال منشغلا بموضوع ترقيتها، إرتسمت على وجهه ملامح الخذلان وقال :

- هه، ويأتي طابتي آخر...وعصابة جديدة...وأنتظر ابني الثاني في الإنعاش...وحمل كاذب آخر...أليس كذلك، أليس السناريو ذاته سيحصل؟

- ليس إلى هذا الحد! سأتولى فحسب مهام الإشراف والتكوين، لدينا أدمغة كثيرة تستحق أن تحظى بفرصة، أنا أشعلت الشعلة في هذا المجال، وآن الأوان ليتوهج المشعل بأنفاس الآخرين.

- وأنا؟ ألا أستحق قليلا من شُعلتك ودعمك، بعد كل هذا الصبر والبلاء؟

- بلى، لكنني حائرة، لمن أزف الخبر، للطفي أم للطيب؟ أيكما والده؟

- ما ذا تعنين؟

قدمت له تحاليل طبية، وقالت:

- لا حاجة لأن تقوم بتخريب إنارة الحمام، الفكرة قميئة للغاية، المحقق المحترف لا يفعل ذلك، هذا تصرف شخص مختل.

قابل تحاملها عليه بابتسامة، وركن السيارة، وراح يقرأ نتائج التحاليل الطبية وقال بابتهاج.

- أنت فعلا حامل، ثم أردف مدققا: أليس هذا من مقالب جابر؟

أطبقت شفتيها ببعضهما وقالت، مستدركة:

- تأكد بطريقتك، لماذا تسأل ساذجة مثلي؟

- لأنني أعشق المرأة الساذجة، ثم ضربها على قحف رأسها وقال مستدركا: أقصد الطيبة، أنت طيبة جدا، ملامحك، صوتك...حتى انفعالك يوحي بالطيبة، وهذا أول ما لفت فيكِ انتباهي.

- رن، رن....

- أهلا نورة؟

- سنزوركما أنا ومقداد مساء، المناسبة تستحق التهنئة،كما أريد أن أحدثك عن الجديد، تم إعداد الملف الخاص برفع دعوى تعويض ضحايا التفجيرات النووية الفرنسية ف صحراءنا، سأرسل نسخا عنه إلى مختلف الهيئات الدولية، بداية من مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة، ومكتب المفوضية السامية لحقوق الإنسان في الاتحاد الأوروبي، والمحاكم الوطنية التي لها اختصاص متابعة الجرائم ذات الطابع الدولي، كمحاكم سويسرا، أحتاج لمساعدتك بشأن بعض التفاصيل العلمية، يجب أن يكون تحرّكنا منظما، ومؤطرا، بشكل يجعلها أكثر من دعوى قضائية، لابد من حملة تحسيس دولية للضمير الإنساني في الوقت نفسه.

اختطف لطفي الهاتف من يدها وقال لها، محتجا:

- أرجوك، توقفي، أنا أمر بحالة استقرار لم أعرفها منذ أخرجتني خلايا أمي وأبي إلى الوجود، ناقشي أمورك مع علي، ابتعدي عن صبرية في هذه الأيام، وإلا ستصبحين قضيتي الخاصة (سيغما 14).

- هاها...ها...

ضحكت نورة، وهمت بأن تسأله عن معنى (سيغما 14) لكن صبرية استعادت منه الهاتف، وقالت:

- لا تهتمي، هو تحت وقع الخبر، أنا حامل.
- هذا خبر! سيفرح مقداد كثيرا.
- نحن في انتظاركما.

لحظات واتصلتُ بها أنا:

- مبارك، سيتم تكريمك في قصر الرئاسة يوم الأحد القادم، تلقيت دعوة لتغطية الحدث، بعد أن صُنف قلمي ضمن الأقلام الأكثر تحفيزا للوعي العام.
- أهنئك، ألم أقل لك ذات يوم أن المعلمة صليحة شخصية عظيمة، كانت فراستها قوية.
- أنت أيضا شخصية مبهرة، أنت عالمة! هل تفهمين معنى عالمة! ثم ابتسمتُ وقلت: لا تنسي كذلك أنك امرأة حامل، اهتمي بنفسك، لا نريد أن يتكرر سناريو الأنيميا الذي أوهنك في الحمل السابق.
- متى وجدت نورة الوقت لتنشر الخبر!
- ما حزرت، هي رفيقة.
- أوه، رفيقة قصة أخرى!
- هه، اذكر القط ينط! سلام، لدي مكالمة مزدوجة....
- ألو، قالت ترد على المكالمة الأخرى.
- مبارك يا سيئة، أنا آخر من يعلم، لولا أن اتصلت بنورة اللحظة لما كنت علمت.

- تأكدت منذ ساعات قليلة، ثم لماذا العتاب مادامت الغاية من علمك به استوفيت؟ نشرتهِ في أنحاء البلاد.

فرقعت ضحكتها، وقالت:

- مارست الإعلام النافع، ألغيت لك زيارة المساء، احتجزت نورة عندي، استمتعي بوقتك مع لطفي، لا داعي لأن تفسد مزاجك بالحديث عن تلك الإجراءات المدوّخة.

كان هاتف صبرية يسرب الصوت، اختطف لطفي الهاتف منها، مرة أخرى، وقال:

- زوجة ابن عمّ العزيزة، أتمّك الله بعقلك! كنت دائما أقول عنك أعقلهن!

ضحكت صبرية ملئ شدقيها، وقالت له بنبرة معاتبة:

- أصبحت رفيقة أعقلنا، يا مراوغ!

قال بثقة:

- طبعا هي أعقلكن، تترك لي فرصة الاحتفال، على طريقتي، بخبر قدوم رضا.

قاطعته معترضة:

- لدي إحساس بأنها بنت!

قال لها ممازحا:

– صدّقتِ أنك جيمس بوند، كاشف الأرحام!

قالت له بنبرة جادة:

– إنه إحساس، أظنها أمل، سأُسميّها أمل!

تمّت

الفهرس

إهداء 5
خاطرة بعيدة 7
استيقظ الحلم القديم 31
قُبلة ألم 43
ذات الجناحين 55
الوافدة الجديدة 67
رحلة طفلتين! 83
أوراق مخلوطة 91
رقان... البريق النائم! 103
كأس موبوءة 113
أنين حموديّة ! 123
إنقشع الغلاف ! 139
حديث يرابيع 147
لوحة مجنونة 161
المواجهة 169
ودّ قسري 189
ظهرت صبرينة ! 201
محفظة بلا أقفال 211
كلمة محتومة 233
الطيّب لطفي! 241

طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الرغاية - الجزائر - 2019
Achevé d'imprimer sur les presses ENAG, Réghaia - Alger - 2019
Bp 75 Z.I.Réghaia Tél : (023) 965610/11

فضيلة ملهاق – أديبة وباحثة جزائرية، متحصلة على دكتوراه في القانون، وتُمارس مهام إطار في الجزائر، كما حصلت على عدة شهادات عليا وتكوينات من الجزائر والخارج، لاسيما في مجالات الدّيبلوماسية وفضاء المعلوماتية واللغات الأجنبية، وتجلّى هذا التنوّع في التجارب الفكرية في جوانب من كتابتها، لها مؤلفات علمية وفكرية، وأخرى أدبية، تتنوّع بين الرّواية والقِصّة والشعر، منشورة داخل الجزائر وفي الخارج.

لَعْنَة اليَرْبُوع – صَبْريّة فتاة بسيطة ومُنْكَفئة على نفسها، لكنّها مولعة بالبحث العلمي، تعرّضت لحادث خطير، بسبب فكرة طفولية راوَدَتها، وتسبّب لها في عاهة مستدامة، حفَرت عميقا في نفسها... جمعتها المُصادفة بعد سنوات بصديقات الدراسة (ربّة بيت، وإعلامية، وقاضية) وأسفرت دَرْدَشَتُهُن عن تجسيد اتّفاق قديم، جعلها تُعاين عن كثب مُخلّفات التّفجيرات النّووية الفرنسية في الصّحراء الجزائرية، ومعاناة ضحاياها، فكُبرت تلك الفكرة في رأسها، ووصلت إلى تحقيق إنجاز غير مسبوق يتعلق بالإشعاعات النووية، لكن الأمور لم تجر بمثل ما توقّعت...وجدت نفسها فجأة تتحمّل مسؤولية قضية كُوْنيّة كبيرة، وفي مُواجهة مطّبات وأخطار عِدّة، وتعقّدت حياتُها، وتداخلت الأحداث...وحدثت المُفاجأة التي لم تخطر ببال....

مكتبة نوميديا

9 789931 008392
Edition et distribution
ENAG 2019
1100 DA